محاضرة مقياس النظرية السوسيولوجية الحديثة2

سنة ثانية علم الاجتماع

اعداد/ أ/د معدن

المحاضرة الخامسة : منظور التفاعلية الرمزية فى علم الاجتماع

1. الجذور الأولى لنشأة الاتجاه التفاعلي الرمزي:

لقد بدت جذور هذا الاتجاه واضحة و قوية عند عالم الاجتماع الألماني Max Weber ، الذي جعل بؤرة تحليلاته السلوك الإنساني ذي المعنى ، بحيث أصبح من العسير تصور هذا السلوك في مجتمع ، جماعة ، علاقة أو تنظيم ، منفصلا عن بطانته النفسية المتمثلة في القيم ، المشاعر والرغبات والمقاصد والغايات. فكانت نظرية فيبر "الفعل الاجتماعي" لها تأثير كبير في انبثاق التفاعلية الرمزية، وذلك عندما ركزت على تفسير الفرد الذاتي للموقف وأهمية المعنى والذاتي. فركز في تعريفه لعلم الاجتماع على أهمية الفهم التفسيري أو المعنى الذاتي حيث عرف علم الاجتماع " بأنه ذلك العلم الذي يحاول أن يقدم فهما تفسيريا للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير سببي لمساره ونتائجه. ويتضمن الفعل الاجتماعي كل السلوك الإنساني عندما يحاول الفاعل الفرد إضفاء معنى ذاتي له. والفعل بهذا المعنى قد يكون علنيا ، أو ضمنيا وقد يتألف من تدخل ايجابي في الموقف ، أو من إحجام متعمد عن مثل هذا التدخل، أو من إذعان سلبي في الموقف. ويعتبر الفعل اجتماعيا بموجب المعنى الذاتي الذي يضفيه عليه الفاعل الفرد أو الفاعلون والذي يأخذ بالحسبان سلوك الآخرين . وبذلك يتوجه في مساره. وبهذا يكون تأثير أعمال فيبر واضحا جليا في علم الاجتماع المعاصر بصفة عامة ، إلا أنه كان أكثر وضوحا في أعمال المدرسة الأمريكية لعلم الاجتماع وبخاصة الاتجاه المعروف باسم مدرسة الفعل الاجتماعي والذي تعد "التفاعلية الرمزية " أحد صياغاته المعاصرة.

وقد تطورت التفاعلية الرمزية بشكل رئيسي في جامعة شيكاغو خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين ، انطلقت من الفلسفة البراجماتية التي نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، حيث أكدت على أهمية الفعل والعمل في مقابل التفكير والمنطق والعقل ، وهي تجسيد للحياة في المجتمع الأمريكي الذي يتميز بالسلوك والحركة وبالبناء والتغير.

ويرجع الفضل في بروز هذا الاتجاه وتطوره إلى إسهام العديد من علماء الاجتماع الأوائل أمثال : جورج زيمل George Simmel،روبرت بارك Bobert Park، وليام إسحاق

توماسWilliam Isaac Thomas ، تشارلز كولي Charles Horton Cooley، جون ديوي John Dewey و جورج هربرت ميد George Herbert Mead ووليام جيمس W.James .إذ لا تزال أعمال هؤلاء المفكرين هي الركيزة الأساسية لمختلف اتجاهات التفاعلية الرمزية , حيث يرى هربرت بلومر H.Blumer وهو من أهم الرواد المعاصرين لهذا الاتجاه ، بأنه بالرغم من أن جورج هربرت ميد قد مات منذ 1931 إلا أن إسهاماته هي جوهر التفاعلية الرمزية كما تجري الآن . مع ذلك هناك محولات عديدة لتطوير هذه المدرسة تمثل الجزء الأكبر منها في دراسات هربرت بلومر ، فضلا عن إسهامات ارفنج جوفمان E.Goffman بأعماله في مجال الفنون والانثروبولوجيا ، وبخاصة تحليلاته للذات والشخصية التي استخدمت لغة التفاعلية استخداما واسعا.بالإضافة إلى إسهامات كل من مانفورد كون M. Khun، هيوجز E.Huges ، هوارد بيكرH.Beker و أنسلم ستراوس A.Istrauss وكذلك روبرت نسبت R.Nisbet.

يرتبط أصل مصطلح "التفاعلية الرمزية" باسم هربرت بلومر Herbert Blumer الذي وصف هذا المصطلح بقوله" انه تعبير جديد غير متداول إلى حد ما ، قمت بصياغته بطريقة ارتجالية في مقالة كتبت ضمن كتاب "الإنسان والمجتمع" لقد انتشر المصطلح بطريقة ما وهو الآن يحظى باستخدام عام، حيث تعد أقدم تقاليد التحليل السوسيولوجي قصير المدى ويعود إلى Blumer سنة 1937 في مقال تحت عنوان "علم النفس الاجتماعي-التفاعلي الرمزي- وفي مقال لاحق له سنة 1962 بعنوان "المجتمع والتفاعل الرمزي" ، ويؤكد بلومر بان ميد أكثر من أي من الآخرين وضع أساس هذا الاتجاه ، رغم انه لم يطور ما ينطوي عليه من منهجية للدراسات الاجتماعية .

2. مفهوم منظور "التفاعلية الرمزية":

إن منظور التفاعلية الرمزية يعد محاولة نظرية ومنهجية تنهض على أسس فلسفية وسيكولوجية تتطلع إلى فهم أكثر عمقا وأكثر ثراء للسلوك الإنساني، والعلاقات الاجتماعية، بل ولعالم الحياة اليومية برمته . غايتها تطبيق مجموعة من الأفكار على حالات معينة من السلوك أو الفعل الإنساني بغية فهم هذه الأفعال تماما كما يفهمها ويعنيها الفاعل أو المشارك في الموقف ذاته.

بحيث يتجه أنصار التفاعلية الرمزية في عملهم من الذات إلى خارجها ، مؤكدين على أن الناس يؤسسون المجتمع ، مؤكدين على أهمية المعاني الرمزية للاتصال ، بما يشمله من لغة وإيماءات وإشارات ، ويسلم أنصاره تسليما كاملا بأن المجتمع يصنع الأفراد ويشكلهم ، ومن ذلك فهم يعتقدون أن هناك فرصا مستمرة للفعل الإبداعي، وبهذا فالتفاعلية الرمزية هي دراسة علاقة النفس بالمجتمع على إنها عملية تفاعلية رمزية بين الأفراد .

فالاتجاه التفاعلي الرمزي بصورة جوهرية منظور نفسي-اجتماعي . ومن القضايا الأولية التي يركز عليها هذا المنظور ، الفرد الذي يمتلك ذاتا ، والتفاعل بين الأفكار والعواطف الداخلية للشخص ، وسلوكه الاجتماعي .فمعظم التحليل ضمن هذا المنظور ينصب على المستوى قصير المدى للعلاقات البين شخصانية، ويتم النظر إلى الأفراد على أنهم بناءون نشطون لتصرفاتهم ، بحيث يفسرون ، ويقيمون ، ويعرفون ، ويخططون فعلهم ، أكثر من كونهم كائنات سلبية راضخة لقوى خارجية ، كما أن التفاعلية الرمزية تشدد على العمليات التي يتخذ الفرد من خلالها قرارات ، ومنها يبني آراء خاصة. فليس هدف التفاعليين الرمزيين اختبار عدد من الفروض امبريقيا ، وإنما هم يزعمون أن لديهم مجموعة من التصورات والأفكار التي تصلح إطارا لوصف الواقع وتفسيره,

وفي كتابه التفاعلية الرمزية يعرف Blumer التفاعل الرمزي بأنه: خاصية مميزة وفريدة للتفاعل الذي يقع بين الناس ، وما يجعل هذا التفاعل فريدا هو أن الناس يفسرون ويؤولون أفعال بعضهم بدلا من الاستجابة المجردة لها ، إن استجابتهم لا تصنع مباشرة وبدلا من ذلك تستند إلى المعنى الذي يلصقونه بأفعالهم. ويوضح بلومر أن المرتكزات المعرفية الأساسية للتفاعلية الرمزية تتمثل في أن البشر يتصرفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه بالنسبة لهم ، أي من خلال المعاني المتصلة بها ، وهذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني، وهي تحور وتعدل ويتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها.

ومصطلح التفاعل الرمزي فيه شقين فاعلين هما عملية التفاعل والتي هي الفعل الموجه ، والجانب الآخر هو أداة التفاعل التي هي النظام الرمزي ، ويقابل ذلك عملية فهم الرمز وهذا يعتمد على عملية ذهنية مرهونة بنشاط العقل المعرفي من المعاني والتصورات والمعتقدات .فأول من أطلق مصطلح "التفاعل الرمزي" هو العالم Blumer ويقصد به " أن الفعل الاجتماعي الموجه للحصول على استجابة الآخرين يؤدي إلى عملية التفاعل وهذا يعتمد على الخاصية الرمزية للعقل ضمن إطار عملية التفاعل والاتصال ، والمتفاعلون لا يتبعون وصفات اجتماعية ثقافية ثابتة إنما يؤولون معنى العقل والرمز ولهذا لا تعتبر العمليات الاجتماعية والعلاقات ونواتجها من بناءات اجتماعية ثقافية كأشياء ثابتة إنما عمليات دينامية متغيرة ومفتوحة.

إن أساس التفاعلية الرمزية هو اللغة وهي رموز دالة تعبر عن عمليات التفاعل والاتصال تفهم من خلال خبرات الجماعة وسياق الفعل ولهذا يعتبر اكتساب الفرد لخبرة الجماعة في النظام الرمزي هي أساس قدرته على التفاعل (اللغة هي مجموعة إشارات جدواها أن تعرب عن الفكر وان تؤديها إلى علم الآخرين وأداتها هي تلك الألفاظ المتكاملة والحروف المكتوبة. فأصحاب التفاعلية الرمزية يؤكدون على الدور الذي يلعبه "التفاعل الاجتماع" في الحياة

الاجتماعية لدى الأفراد والجماعات وان التفاعل الاجتماعي هو أساس التطورات التي تطرأ على الحياة الاجتماعية مع مرور الزمن.

3. أهم ممثلي منظور التفاعلية الرمزية:

جورج هربرت ميد G.H.Mead(1863-1931): [1] ولد "ميد" سنة 1863 في ماس شوست ، ودرس بجامعة هارفارد في الولايات المتحدة الأمريكية ، وليزبرج وبرلين في ألمانيا ، درس الفلسفة المثالية الألمانية والبرجماتية الأمريكية. أمضى "ميد" جانبا كبيرا من حياته الأكاديمية يدرس في جامعة شيكاغو التي تعتبر من المدارس المتطورة الكبرى في علم الاجتماع الأمريكي . كثب "ميد" العديد من المقالات وقدم الكثير من المحاضرات التي جمعت بعد وفاته سنة 1931على هيئة كتب كان أهمها " العقل والذات والمجتمع" سنة 1934 و"حركات الفكر في القرن التاسع عشر" سنة 1936 و"فلسفة الفعل" سنة 1939.

قيل عن جورج هربرت ميد بانه "يعتبر لحد الآن من بين المفكرين الأمريكيين القلائل اللذين ساعدوا في تشكيل خاصية العلم الاجتماعي الحديث« ، حيث اهتم بدراسة علاقة الفرد بالجماعة والمجتمع خاصة فيما يتعلق بعملية التفاعل الرمزي ضمن الجماعات الصغيرة ، وكيف يتم تشكيل الذات والعقل من ناحية وتشكيل ما هو اجتماعي ثقافي من ناحية أخرى، والعلاقة بين هاذين الجانبين وارتباط هذه العلاقة بالسلوك الإنساني، فالفعل الاجتماعي سواء كان عملا أو قولا هو عبارة عن رمز لما يتضمنه من معنى يحتاج إلى تأويل وهو يشكل الحقائق التي يحملها الناس لذواتهم وللآخرين والمجتمع وبما يحمل الناس من معاني لهذه الجوانب عليها يتصرفون . إذ يصبح النظام الرمزي وتحديدا اللغة هي الأهم في عملية التفاهم والتفاعل التي ترتبط بتشكيل الذات ونضوج العقل والوعي الاجتماعي .

انشغل Mead بمسائل عديدة مثل العلاقة بين العقل والجسد ، طبيعة الوعي ، أسس القوى الإنسانية الرشيدة وتفسير ماهية الإنسان وهو في ذلك يتبنى وجهة النظر البراجماتية متؤثرا في ذلك بأعمال "جيمس" و"ديوي". لكنه حاول أن يقيم نسقا فكريا مستقلا إلى حد ما وبنزعة سوسيولوجية، حيث حاول Mead أن يوظف الفلسفة البراجماتية بطريقة مختلفة عن سابقيه من اجل تفسير العقل.

اهتم Mead اهتماما كبيرا بأفكار Cooley حيث قبل فكرته حول العلاقة بين الذات والمجتمع ، فاعتبرهما مظهران لعملية اجتماعية نفسية واحدة ، وان عمليات التجمع والاتصال تمثل سياقا خلاق لظهور الذات، ويعتقد مثل كولي أن الحياة في الجماعات الأولية ذات أهمية خاصة في تكوين ونمو الطبيعة الاجتماعية للذات، فحلل سلوك الأطفال في اللعب وجماعة الرفاق والجوار، فكتب قائلا " إن العقل لا يستطيع أن يجد أي تعبير له ، بل لن

يتحقق وجوده مطلقا ، إلا في ضوء البيئة الاجتماعية ، والتي تعني نمطا منظما من العلاقات الاجتماعية والتفاعلات ، ولا ينمو العقل أيضا إلا عن طريق العملية الاجتماعية للخبرة والنشاط". وتتلخص أفكار ميد الرمزية في النقاط التالية :

- تعتمد نظريته على كون الذات والنفس البشرية هي المرآة التي ينعكس عليها المجتمع بكل صوره وتناقضاته وتفاعلاته.
- الذات لا توجد إلا في علاقة مع جماعات اجتماعية ، لأن الفرد نفسه ينتمي الى بناء اجتماعي والى نظام اجتماعي عام. ولذلك كان العقل والذات وكان الوعي والفعل ظواهر جمعية وليست فردية تشتمل على أدوات وعلاقات ونظم اجتماعية.
- المجتمع هو وحدة ديناميكية متطورة، تولد بشكل مستمر أنماطا جديدة ومتميزة لأساليب التنشئة الاجتماعية للأفراد فالفرد كائن عقلاني ومحصلة للعلاقات الاجتماعية.
- الرموز هي عوامل جوهرية لتسهيل الاتصال، تعكس الحاجات الاجتماعية والرغبات الفردية للإنسان من خلال وظيفتها الاجتماعية بقصد تحقيق التفاعل.

افرنج جوفمان Erving Goffman (1922-1982): ولد غوفمان في مدينة البرتا بكندا سنة 1922 ، حصل على البكالوريوس من جامعة تورنتو سنة 1945، وعلى الماجستير من جامعة شيكاغو سنة 1949 ، والدكتوراه من نفس الجامعة سنة 1953 . كان عضوا في مركز البحوث بجامعة سكوتلندا من سنة 1949 حتى سنة 1951 ، ثم التحق بقسم علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا عام 1958 ثم أستاذا للانثروولوجيا وعلم الاجتماع في جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا . من أهم أعماله "حضور الذات في الحياة اليومية" سنة 1959 و "المقابلات والوقائع" سنة 1961 توفي سنة 1982.
تأثر Goffman كثيرا بأفكار Mead ، مما جعله يركز على الذات بشكل كبير في كتابه "تقديم الذات في الحياة اليومية"، والذي شكل الكثير من أعماله اللاحقة ، يعد من المفكرين البارزين الذين ارتبطوا بمدرسة شيكاغو الأصلية ، وبانضمامه إلى Blumer في جامعة بركلي ، حيث استطاعا تأسيس ما يشبه مركزا للتفاعلية الرمزية ، إلا أن هذا المركز لم يضارع مدرسة شيكاغو في أهميتها ، وبعد سنة 1952 تضاءلت أهمية التفاعلية الرمزية على الرغم من استمرارها كنظرية بارزة في علم الاجتماع.

لقد بنى Goffman لنفسه مكانا قويا ومتميزا في نظرية علم الاجتماع المعاصر، حيث نشر خلال هذه الفترة ما بين الخمسينات والسبعينات سلسة من الكتب والمقالات التي كانت المخاض لميلاد التحليل المسرحي كشكل مختلف من أشكال التفاعلية الرمزية، وتتلخص فكرته حول أن هناك تشابها كبيرا بين الأداء المسرحي وأنماط الدور الذي نقوم به جميعا في أفعالنا وتفاعلاتنا اليومية.

اهتمت نظريته الاجتماعية بالفرد وموقفه من الآخرين ، وكيفية تقديم نفسه وأفعاله لهم من خلال الحياة اليومية، والطريقة التي يمكن من خلالها التحكم بانطباعات الآخرين عنه أثناء التفاعل الاجتماعي، وهذه المبادئ هي نوع من التأليف المسرحي حيث الأداء لمواجهة الآخرين والتأثير عليهم فالتحليل المسرحي يتناغم مع جذوره التفاعلية الرمزية حيث يركز على الفاعلين والفعل والتفاعل ، واستنادا إلى التفاعلية الرمزية وجد Goffman في المسرح استعارة رائعة لتسليط الضوء على العمليات الاجتماعية الصغرى.

يرى Goffman أن التعابير الجسدية والإيماءات ونوعية الفعل تعتبر مؤشرات أصدق للمعنى ووعي الإنسان به، تجعله يحاول تدبير تعابيره الحركية وأفعاله بالشكل الذي يظهر أحسن مظهر محاولا إخفاء الأوجه السلبية مما يجعل التفاعل الاجتماعي نوعا من لعبة الانطباعات بين المرسل والمستقبل طرف يحاول اكتشاف الحقيقة ، وطرف يحاول إخفاءها الأمر الذي يساعد في استمرار العملية الاجتماعية، بحيث كل طرف من أطراف التفاعل يحاول حماية صورته وتجنب الفضائح ويقدم أفضل صورة لذاته لمحاولة دفاعية . ويحاول كل إنسان في عملية التفاعل وضع واجهة تشمل الرموز والإشارات التي تتناسب مع مكانة الدور كالملبس ونمط اللغة.

انطلق Goffman من مفهوم الذات لكي يعالج الصلة بينها وبين تنظيم المجتمع ، ويسلم بوجهة نظر Mead والتي مؤداها أن الذات كيان اجتماعي وجد خلال عملية التفاعل الاجتماعي ، وان الفرد لا يعي فحسب "الأخر المعمم" وإنما هو يستدمج القيم والاتجاهات السائدة في وسطه الاجتماعي، أو هو يتعلم هذه القيم والاتجاهات ويدخلها ضمن تكوينه النفسي بطريقة تجعله قادرا على تطوير اتجاهاته الاجتماعية تلقائيا.وتنمية خبراته ومشاعره وإتيان أفعال اجتماعية ملائمة ،

ينظر إلى أن الحياة اليومية أشبه بالحياة على المسرح ، فالممثل على خشبة المسرح يحاول تقديم ذاته إلى الأفراد على أساس الدور الذي يقوم بتمثيله في المسرحية، فيلجا إلى حيل عديدة لكي يقتنع الجمهور بالفعل بقدرته على تقمص الشخصية التي يقوم بتمثيلها"فإذا كان مثلا يقوم بتمثيل دور رجل شرطة ، فان عليه أن يرتدي زي الشركة ، وان يجعل سماته ونبرات صوته وحركاته متطابقة قدر المستطاع مع ما يتسم به رجال الشرطة" ويعتقد Goffman أن هذا هو بالفعل ما يحدث في حياتنا اليومية فنحن نقنع الآخرين بطبيعة ذواتنا ، ماهية شخصيتنا ونلجأ في سبيل ذلك أيضا إلى عدد من الترتيبات فالمسكن الذي نقيم فيه ، الزي الذي نرتديه، طريقة الحديث ، أسلوب المعاملة هي كلها تعبيرات ومظاهر تدل على الأدوار والسمات الشخصية والمكانة الاجتماعية والاتجاهات.

<u>تشارلز كولي (1864-1929):</u> ولد غوفمان في مدينة البرتا بكندا سنة 1922 ، حصل على البكالوريوس من جامعة تورنتو سنة 1945، وعلى الماجستير من جامعة شيكاغو سنة

1949 ، والدكتوراه من نفس الجامعة سنة 1953 . كان عضوا في مركز البحوث بجامعة سكوتلندا من سنة 1949 حتى سنة 1951 ، ثم التحق بقسم علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا عام 1958 ثم أستاذا للانثروولوجيا وعلم الاجتماع في جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا . من أهم أعماله "حضور الذات في الحياة اليومية" سنة 1959 و "المقابلات والوقائع" سنة 1961 توفي سنة 1982.

كان "كولي" من أوائل من اهتموا بتشكل الذات ونموها، وتوصل إلى أن الذات ونموها إنما تتكون حصيلة عملية التفاعل مع الآخرين. ففي السنوات الأولى يرى الطفل نفسه من خلال رؤية الآخرين له. ويقوم بملاحظة وتأويل استجابات الآخرين ، فيتكون لديه تصور للذات ، وينطلق هذا من أهمية الأخر للفعل. وقد أطلق على هذه العملية في تصور الذات "المرآة العاكسة للذات" وكأن الآخرين مرآة تمكنه من رؤية ذاته. ويركز "كولي" على الذاتية الأساسية للفرد والمجتمع ، كما أنه يركز على الاتصال كآلية تربط الأفراد داخل المجتمع، فالذات تعتبر أساسية في السلوك الإنساني، واعتبار الجماعات الأولية كبوتقة تنصهر فيها خبرات الفرد وتصوراته .

وتشمل عملية "المرآة العاكسة للذات" على عناصر جوهرية وهي:

- كيف تظهر ذواتنا وأفعالنا للآخرين عبر استجاباتهم.
- نمو شعور ذاتي نتيجة لذلك كالثقة بالنفس ، وبهذا لا تولد الذات مع ولادة الإنسان ، ولا تنمو بمجرد نموه العضوي والحيوي ، وإنما الذات هي تعبير عن نتاج اجتماعي تتشكل وتنمو من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين.
- هناك تداخل بين النفس والأفكار والتفاعل، فشعور الفرد ما هو إلا انعكاس لأفكاره حول نفسه.

يعطي كولي أهمية كبيرة للجماعات الأولية كالأسرة وجماعات الجوار واللعب ، لأن من خصائصها الأساسية أنها تقوم على علاقات المواجهة المباشرة الوثيقة، والتعاون الواضح ، والصراع ، وحرية التعبير عن الشخصية والعواطف. وبالتالي فلهذه الجماعات القدرة على تشكيل الطبيعة الإنسانية ، وتأثيرها على خبرات الفرد المبكرة ، وبالإضافة إلى ذلك فهي تنمي لدى الفرد الشعور بالوحدة الاجتماعية .

ويرى نيكولا تيماشيف ان نظرية الذات عند كولي تقوم على عدة فرضيات أهمها: يؤثر المجتمع في تكوين ذات الفرد ومعتقداته وقيامه بممارسة أدواره الحياتية المختلفة.

- يدخل الفرد في تفاعل مع الآخرين وفقا لمنظومة من التوقعات التي يفضلون أن يروها منعكسة في معتقدات وسلوك بعضهم البعض.

- السلوك الاجتماعي مكتسب ، يتعلمه الفرد من المجتمع عبر وسائل التعليم والتنشئة الاجتماعية المختلفة.

4. أهم الانتقادات الموجهة لاتجاه التفاعلية الرمزية:

لقد وجهت العديد من الانتقادات إلى هذا الاتجاه ، اغلبها تهدف إلى تنمية وتطوير الإطار التفاعلي الرمزي والتغلب على نقاط الضعف فيه، ومن أهم هذه الانتقادات ما يلي:

- يرى ميلتزر Meltzer إلى أن الإطار الذي استخدمه Mead ، إطار يتسم بالغموض وعدم التحديد ، يتضح ذلك من خلال مجموعة المفاهيم التي طورها مثل (الدافع ، المعنى ، العقل ، اكتساب الدور، الذات، الأنا الداخلية ، الأنا الخارجية ،الوعي الذاتي ، الصورة ، الاماءة والرمز) وتتطلب هذه المفاهيم إدراكا حسيا ، الأمر الذي لا يجعل منها أدوات تصورية واضحة ودقيقة لتفسير السلوك الإنساني.
- يذهب Kuhn إلى أن معظم أعمال التفاعلية الرمزية لا تزيد عن كونها مجموعة من تعليقات أو دفاع منظم عن بعض الأفكار الخاصة بكيفية فهم الذات الإنسانية دون الاهتمام بترجمة هذه الأفكار إلى بحوث امبريقية مبتكرة.
- إن التفاعلية الرمزية أما أنها تتجاهل التنظيم الاجتماعي والبناء الاجتماعي وإنما إنها تتبنى تصورا خاطئا لهما.
- إن منظور التفاعلية الرمزية لم يهتم اهتماما كبيرا بالقضايا المرتبطة بالقوة والبناء على الرغم من تأكيده على التفاعل بين الذات والمجتمع ، فمثلا لم تكن قضية جماعة أو طبقة هي التي تحكم المجتمع مسألة محورية بالنسبة للتفاعلية الرمزية.
- قدمت التفاعلية الرمزية صورة ناقصة عن الفرد ذلك لأن علم الاجتماع بحاجة إلى نظرية أكثر عمقا عن الفرد.

المحاضرة الثانية: / الاتجاه الظاهراتي

الجذور الفكرية للاتجاه الظاهراتي:

ظهر **"الاتجاه الظاهراتي"** كرد فعل للنظريات الاجتماعية التقليدية وكنتيجة منطقية للتحولات الاجتماعية والفكرية والبنائية التي اجتاحت المجتمعات الفرنسية في الستينات، حيث شهدت هذه الفترة إحياء التراث الفلسفي للفينومينولوجيا التقليدية وتعميق مفاهيم جديدة تلبي الواقع الجديد من خلال نظرية اجتماعية تعطي فيه لحرية الفرد وأفعاله القصدية

واللاقصدية مكانا بارزا، وتكون معبرة عن جيل الستينات في أوروبا وأمريكا، واتجاهاته الفكرية نحو الفلسفة الوجودية ومضامينها الجديدة القريبة من عقله وطموحاته نحو التغيير..

إنّ الاتجاه الظاهراتي **"الفينومولوجي"** يمكن النظر إليه باعتباره رد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية مقابل الاتجاهات الراديكالية التي تعتبر رد فعل ثوري لفشل الاتجاهات السابقة الذكر، ويشبه هذا الموقف ذلك الموقف القديم الذي نشأ كرد فعل لفشل الفلسفات الميتافزيقية إبان عصر التنوير.إذاً فقد بدأ علماء الاجتماع يشككون في قدرة المناهج الوضعية والأمبيريقية على فهم الواقع الاجتماعي فهماً عميقاً، مما دفعهم إلى طرح بعض البدائل المنهجية كالفهم الفينومينولوجي والتحليل الأثنوميثودولوجي، وحينما حققت هذه البدائل المنهجية قدراً من الذيوع والشهرة، بدأ علم الاجتماع الحديث يشهد تنوعاً لم يعرفه من قبل.

يشتمل مصطلح الاتجاه الظاهراتي على عدة أنماط من التحليل السويسولوجي ومن أهمها:

- الاتجاه الاثنوميتودولوجي عند **هارولد جارفنكل Harold Garfinkel**
- اتجاه تشكيل الواقع الاجتماعي **عند بيتر بيرغر Peter Berger**
- نظرية الاستشراف النسوية عند **دوروتي سميث Dorthy Smith**

ويتعارض الاتجاه **الفينومينولوجي** مع النزعة الوضعية، فيؤكد الفينومينولوجيون صعوبة الفصل بين العالم الاجتماعي من ناحية وأساليب تفسيره وفهمه من ناحية أخرى.وقد انتقد **هوسرل** 1859 – 1939علم الاجتماع بسبب ميله إلى محاكاة العلوم الطبيعية عند النظر إلى الواقع الاجتماعي؛ لقد افتقد بذلك علماء الاجتماع القدرة على الإحساس بظواهر الوعي.

والواقع أن الملاحظات النقدية التي سجلها **هوسرل** لا تنطبق فقط على الموضوعات التي يهتم بها علماء الاجتماع بل تنطبق أيضاً على المناهج التي يستخدمونها في دراسة الواقع الاجتماعي، ويستطيع هؤلاء العلماء إنقاذ علمهم من السطحية إذا ما حاولوا العودة إلى ظواهر الوعي باستخدام الفهم الفينومينولوجي، فالفينومينولوجيا هي جهد موظف لوصف الظواهر كما تتبدى لنا من خلال وعينا بهاوبذلك يصبح الوعي وسيلة وهدفاً للفينومينولوجيا.

ترتبط جذور علم الاجتماع الظاهراتي أساسا بالفلسفة الظاهراتية وبشكل خاص بعمل الفيلسوف الألماني **ادموند هوسرل Edmund Husserl** (1859-1938) الذي كان أول من استخدم مصطلح الظاهراتية ، حيث عرفها بأنها **"الاهتمام بتلك الأشياء التي يمكن أن تدرك مباشرة بواسطة حواس المرء"** وهذه هي النقطة الأساسية حول الظاهراتية أنها تنكر بأننا نستطيع أن نعرف عن الأشياء أكثر مما نشهده بالخبرة المباشرة عبر حواسنا. إنّ جميع معرفتنا تأتي مباشرة من تلك الظواهر الحسية وأي شيء آخر هو عبارة عن تأمل، ويرى **هوسرل** أنه علينا تجنب حتى محاولة التأمل، ويوضح علماء الاجتماع الظاهراتيين أن مهمة علم الاجتماع هي أن نصف كيف نرى العالم بدقة.

وبعد **"هوسرل"** جاء العالم **"الفرد شوتز"** الذي يعد الرافد الفكري الثاني بعده، فانتقد علم الاجتماع الصوري عند **"ماكس فيبر"** خاصة في تصوره لعلم الاجتماع باعتباره العلم الذي يتوصل إلى الفهم التأويلي للفعل الاجتماعي من أجل التوصل إلى تفسير سببي لمجراه وآثاره ، واعتبار الفعل يكتسب صفة اجتماعية من خلال المعنى الذاتي الذي يضفيه عليه الأفراد ، حيث يعتقد **شوتز** بأن **فيبر** لم يكن عميقا لكي يلمس أساس المعرفة الاجتماعية , وهذا لا يعني أن الظاهراتية لم تستفد من أعمال **فيبر**، فقد كانت الكثير من القضايا التي طرحها **فيبر** موضع اهتمام هذه النظرية خاصة في الاهتمام بالمعنى الذاتي لأفعال الأفراد وصياغة الأنماط المثالية.

إنّ الفهم الفينومينولوجي للواقع يمثل محاولة نقدية للاتجاهات السوسيولوجية التي تميل إلى التقريب بين العالم الاجتماعي الثقافي من ناحية والعالم الطبيعي من ناحية أخرى، كما يحاول هذا الاتجاه إعادة النظر في العديد من المسلمات النظرية والمنهجية الشائعة في الفكر السوسيولوجي الحديث، وتأكيد الفارق الهام بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية.

ومن هنا فالمنظور الظاهراتي يرفض منذ البداية اعتبار العلوم الطبيعية نموذجا يمكن أن تحاكيه العلوم الاجتماعية ذلك أن علم الاجتماع الوضعي يقبل مسلمات العلوم الطبيعية دون إخضاعها لنقد شامل، والوقوف على مدى ملائمتها لفهم الواقع الاجتماعي

إنّ الظواهر الطبيعية حسب الطرح الفينومينولوجي تختلف اختلافا جوهريا عن الظواهر الاجتماعية فالأولى لا تعبر عن بناء خاص من المعاني، وبالتالي تتيح للباحث حرية الملاحظة وتفسير الظواهر التي يدرسها تفسيرا خارجيا مستقلا، أما في العلوم الاجتماعية فان الباحث يدرس عالما يتشكل من خلال المعاني التي تمثل بالنسبة له وسيلة لفهم الواقع الاجتماعي. وفضلا عن ذلك فإن الظواهر الاجتماعية ذاتها تكتسب معاني خاصة بالنسبة للأفراد الذين يعيشون في إطار **اجتماعي-ثقافي** معين. ومن هنا يتضح دور العالم الاجتماعي في فهم الواقع الاجتماعي ودور العالم الطبيعي في دراسة الواقع المادي. فالأخير يدرس ظواهر لا تتخذ بناءً معرفيا مسبقا.

2- مفهوم الظاهراتية"الفينومينولوجية":

الظاهرتية هي مدرسة اجتماعية استخلصت من الفلسفة الظاهرتية التي تركز بشكل معمق على تحليل ووصف الحياة اليومية بما يشاهد ويلمس منها، أي تعنى بالظواهر المرئية والمحسوسة والملموسة المقترنة بأحداث الحياة البشرية الملتصقة بالمشاعر والأحاسيس. ركزت الظاهراتية على الصفات الاجتماعية الفريدة الحدوث أثناء عملية التفاعل.

وأبرز مفاهيم الظاهراتية أنها ترى أن المعرفة اليومية تعمل على الخلق والإبداع المنتج من قبل الأفراد الذين يمتلكون تراكما معرفيا يستلهمونه من معارف المؤسسات ورموزها. كما تعرف موسوعة علم الاجتماع **"الظاهراتية "** بأنها : **"منهج فلسفي يبدأ من الفرد وخبرة وعيه وتحاول تجنب الافتراضات السابقة، والتحيزات، والعقائد الفلسفية الدوغماتية، وهكذا فالظاهراتية تختبر الظواهر كما تدرك في فوريتها من قبل الفاعل الاجتماعي"**. إن الظاهراتية تطلب منا أن لا نأخذ الأفكار العامة ومفاهيمنا التي تعلمناها على

أنها أمور معطاة أو مسلم بها ، وبدلا من ذلك نتساءل حولها أو نتساءل حول الطريقة التي تنظر بها إلى العالم وطريقة وجودنا فيه.

3- القضايا الأساسية التي ترتكز عليها الظاهراتية:

يمكن إبراز أهم المرتكزات النظرية التي قامت عليها الظاهراتية فيما يلي:

- إنَّ مادة التحليل الظاهراتي هي خبرة الحياة اليومية
- يمتلك الإنسان عنصر المبادرة في الفعل الاجتماعي وهو خالق الوضع الاجتماعي ونتاجا له.
- تركز الظاهراتية عل مبدأ النزعة الفردية.
- عن طريق التأمل الداخلي يمكن التوصل إلى الميول الفطري في الإنسان.

فالاتجاه الظاهراتي يمكن اعتباره كرد فعل محافظ لفشل الوضعية والوظيفية مقابل الاتجاهات الراديكالية التي تعتبر رد فعل ثوري لفشل هذه الاتجاهات السابقة الذكر. حيث بدأ أنصار الاتجاه الظاهراتي يشككون في قدرة المناهج الوضعية والامبريقية على فهم الواقع الاجتماعي فهما دقيقا، مما دفع إلى طرح بعض البدائل المنهجية كالتحليل الظاهراتي وبالتالي يحاول أنصار هذا الاتجاه:

- إعادة النظر في الكثير من المسلمات النظرية والمنهجية الشائعة في الفكر السوسيولوجي.
- يرفض هذا الاتجاه اعتبار العلوم الطبيعية نموذجا يمكن أن تحاكيه العلوم الاجتماعية مع التأكيد على الفارق بينهما.

يحاول الاتجاه الفينومينولوجي في علم الاجتماع إعادة النظر في كثير من المسلمات النظريةوالمنهجية الشائعة في الفكر السوسيولوجي الحديث وهي:

***أولا:** تأكيد الفارق الهام بين الظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية.

***ثانيا:** يرفض اعتبار العلوم الطبيعية نموذج يمكن أن تحاكيه العلوم الاجتماعية.

***ثالثا:** الظواهر الطبيعية لا تعبر عن بناء خارجي من المعاني، وبالتالي يتيح للباحث حرية الملاحظة وتفسير الظواهر التي يدرسها تفسيراً خارجياً مستقلاً.

***رابعا:** يدرس الباحث في العلوم الاجتماعية عالماً يتشكل من خلال المعاني التي تمثل بالنسبة له وسيلة لفهم الواقع، كما أن الظواهر الاجتماعية تكتسب معاني خاصة بالنسبة للأفراد الذي يعيشون في إطار ثقافي معين، ومن هنا يتضح مدى الاختلاف بين دور عالم الاجتماع في فهم الواقع الاجتماعي ودور العالم الطبيعي في دراسة العالم المادي؛ فالعالم الطبيعي يدرس ظواهر لا تتخذ بناءً معرفياً مسبقا وبالتالي فهي لا تعرف القصد أو الإرادة، وعلى الرغم من أن العالم الطبيعي يدرس ظواهر طبيعية توجد في إطار اجتماعي إلا أن علاقته بهذه الظواهر هي علاقة خارجية تختلف تمام الاختلاف عن علاقة العالم الاجتماعي بالظواهر الاجتماعية التي يدرسها.

4- أهم الرواد الممثلين للاتجاه الظاهراتي:

*ادُمند هسرل[1] **Edmund Husserl** 1859-1938: يُعتبر الفيلسوف الألماني **هوسرل**مؤسس الفينومينولوجيا ذات التأثير الكبير على الفلسفة المعاصرة، بالأخص الوجودية، كما أنها أثرت بالفلاسفة مثل **سارتر J.P. Sartre** و**هايدغرHeidegger** و**ماكس شلر Max Scheler.**
وفي كتابات هوسرل المبكرة نلمس رفضا صريحا للنزعة السيكولوجية، حيث ذهب إلى أن العلوم التي تدرس الإنسان تحاول تفسير الخبرات الإنسانية من خلال مجموعة من الأسباب الخارجية والداخلية. ويؤكد هوسرل في هذا على أن علم النفس قد فَقَد القدرة على تحديد هويته، لأنه فقد الإحساس بالظواهر التي يدرسها، وبالتالي فهو ضحية الصراع بين تحقيق الوعي **"الخالص"** والوعي **"الامبريقي"** وبعبارة أخرى فان علم النفس قد منح الوعي **"الخالص"** روح العالم الطبيعي.

وجه هوسرل انتقادات مماثلة إلى علم الاجتماع بسبب ميله إلى محاكاة العلوم الطبيعية عند النظر إلى الواقع الاجتماعي، لقد افتقد بذلك علماء الاجتماع القدرة على الإحساس بظواهر الوعي وبهذا فالظاهراتية عند هوسرل تسعى إلى دراسة أشكال الخبرات الواعية التي طالما سلم بها الفلاسفة والعلماء واعتمدوا عليها في إقامة فلسفاتهم، وصياغة نظرياتهم، بمعنى أنها تحاول الوصول إلى أعماق الخبرات الإنسانية باستخدام أسلوب منهجي محدد هو "الرد الفينومينولوجي". إذا فالفينومينولوجيا ما هي إلا محاولة فلسفية لوصف الأشياء والظواهر والوعي، بعبارة أخرى هي جهد موجه لوصف الظواهر كما تبدو لنا من خلال وعينا بها وبذلك يصبح الوعي وسيلة وهدفا للفينومينولوجيا.

وينقسم هذا الكتاب الضخم إلى جزأين: الجزء الأول منهما جاء موسوماب ـ تمهيدات للمنطق الخالص يحتوي على نقد للاتجاه النفسي وللاتجاه النسبي من وجهة نظر عقلية وموضوعية، بينما يقوم الجزء الثاني بتطبيق المبادئ التي احتواها الجزء الأول على بعض المشكلات المعينة في فلسفة المنطق.

وفي عام 1913 م نشر **هوسرل** كتابه "أفكار حول الفينومينولوجيا الخالصة" حيث تتحول الفينومينولوجيا إلى **"فلسفة أولى "** ويكون موضوعها هو المعرفة بوجه عام ويحتوي الكتاب على نتائج ذات طابع مثالي، وتتطور هذه النتائج المثالية على نحو شامل في الكتابين التاليين لهوسرل : **" المنطق الصوري والمنطق الترانسندنتالي "**ظهر عام 1929 و**" التجربة والحكم "** ظهر عام 1939.
ما يصبو إليه هسرل هو أن يجعل من الفلسفة علماً دقيقاً من خلال تحديد كيفي لذلك حتى تصبح الفلسفة كالرياضيات مثلاً، وفي سبيل هذا يريد أن يبدأ من المباشر لكن المباشر في نظره ليس العالم المحسوس كما يذهب إلى هذا التجريبيون والحسيون، لأن التجربة الحسية لا يمكن أن تعطينا اليقين الذي يستبعد إمكان الشك في وجود العالم المحسوس، كما بيّن لنا الشكيون اليونان. وكل موضوع معطى لنا على أنه شعور واقعي أو ممكن للأنا المفكِّر. ولهذا فإن العالم المحيط بي ليس إلاّ ظاهرة، وليس عالماً موجوداً بيقين. والأمر المباشر الحقيقي هو الماهيات أي الأمور المعقولة بوصفها معطاة في الفكر وهذه الماهيات

هي أولاً ماهيات عامة: ماهية الإدراك، ماهية التصور، ماهية العدد، ماهية الحقيقة، ثم القواعد التي تحدد علائقها، مثل قواعد البرهان. وهي ثانياً الأمور المادية مثل: ماهية الصوت، ماهية اللون، والعلاقة بينهاوبين غيرها من الأمور المادية مثل العلاقة بين الضوء والامتداد.

من جانب آخر يرى هسرل أن المنطق ليس علما معياريا وإن كان أساسا لمذهب معياري شأنه في هذا شأن كل العلوم النظرية، فالواقع في رأي هسرل أن المنطق لا يقول شيئا عما ينبغي أن يكون أو عن الواجب إنما هو يتحدث عن الوجود. ولنأخذ مثلا قانون عدم التناقض فإنه لا يقول إنه لا يمكن إطلاق قضيتين متناقضتين و إنّما يقول وحسب أن الشيء الواحد لا يمكن له أن يتسم بصفات متناقضة.

***ألفريد شوتز2Alfred Schutz** (1899-1959) : ولد **شوتز** في **فينا ـ النمسا** ـ عام 1899م و توفي عام 1959 درس في جامعة فينا و حصل على إجازة في القانون ، ثم اشتغل موظفاً في البنوك، لكن هذا العمل لم يشبع طموحه المعرفي ، لكنه وجد في دراسة الظواهر الاجتماعية متعة معرفية تشبع طموحه العلمي . لم يكن شوتز أكاديمياً حتى عام 1920 تأثر بأفكار ماكس فيبر ، خاصة نظرية الفعل الاجتماعي و النموذج الأمثل ، و بالفيلسوف **ادموند هورسل** و **هنري برجسون** ، لذا كانت إسهاماته في المدرسة النمساوية الاقتصادية منطلقة من الفعل الاجتماعي . لم يكن شوتز معروفاً إبان حياته إنما اشتهر بين علماء الاجتماع بعد وفاته ، حيث انتبه علماء الاجتماع المعاصرون و المحدثون إلى عمله عن الفعل الاجتماعي و أعماله حول " **علم الظاهرات** ". وخلال الحرب العالمية الثانية عمل في باريس ونيويورك كقنصل قانوني في عدة بنوك، بذات الوقت كان يمارس الكتابة عن الظواهر الاجتماعية مع إلقاء محاضرات حول الموضوع ذاته ، و عن النظرية و البحث الاجتماعي في مدرسة البحوث الاجتماعية في مدينة نيويورك عام 1943.و في نفس العام كتب في النظرية و البحث الاجتماعي و في عام 1956 تفرغ للعمل التدريسي و الكتابة ، فأثر على اتجاهات طلبته العلمية أمثال **بيتر برجر** و **توماس لوكمان** و ، هذا التأثير منحه الدخول إلى صلب النظرية الاجتماعية .

يعد شوتز من أبرز العلماء الذين نظروا للظاهراتية، حيث استخدم في توضيحه لعلاقة الفاعل بالفعل مصطلحين هما **"الاستبطان"** و**"الوعي"** حيث يرى أن المعنى الذي يحمله الفاعل لفعله يجعل عملية التفهم باستبطان المعنى من العمليات المهمة في التوصل إلى الحقيقة والاستبطان .

وإذا كان هوسرل قد أرسى دعائم الفينومينولوجيا كمدخل فلسفي لدراسة الخبرات الخالصة، فان **ألفريدشوتز** هو الذي طرح الامكانات السوسيولوجية الهائلة التي تنطوي عليها الفينومينولوجيا في دراسة الواقع الاجتماعي، ولقد عبر **شوتز** عن أفكاره في كتابه الشهير **"فينومينولوجيا العالم الاجتماعي"**يمثل الواقع الاجتماعي نقطة البداية الفينومينولوجية عند

شوتز ، ويتميز هذا الواقع بالوضوح الذاتي مما يعني أن فهمه لا يتطلب بالضرورة تطوير نظام علمي دقيق، ولكي يعبر **شوتز** عن معنى الواقع الاجتماعي نجده يستخدم تعبيرات "كالعالم المحسوس" و"عالم الحياة اليومية" للإشارة إلى مجال اجتماعي يمكن دراسته باستخدام الفهم الفينومينولوجي، حيث يرى شوتز أن الواقع الاجتماعي يتغير ويتعدل من خلال أفعال الأفراد، تماما كما تخضع هذه الأفعال بدورها لتأثير الواقع الاجتماعي، أي أنه هناك علاقة جدلية تربط الواقع الاجتماعي بالأفعال الاجتماعية.

ويميز شوتز بين مجالات مختلفة للواقع الاجتماعي، يعبر كل منها عن نمط مستقل من الوجود والحدود الواضحة للمعاني، ومن أمثلة هذه المجالات: مجال الحياة اليومية، مجال الأحلام، مجال العلم، ومجال الخبرة الدينية، وفي كل من هذه المجالات نجد إطارا محددا ومحدودا من الخبرات الحياتية؛ بعبارة أخرى فان مجالات المعاني لا تتطابق ولا يمكن استبدال بعضها بالبعض الأخر، وإذا ما حدث ذلك تفككت المعاني وفقدت وحدتها وتماسكها. ويعبر شوتز عن ذلك قائلا: **"إن مجال الأحلام والفن والدين والتفكير العلمي هي مجالات مستقلة عن بعضها البعض بحيث يصعب استبدالها أو تحويلها"**.

إنَّ الفلسفة الظاهراتية لها تاريخ طويل إلاأن محاولة تطوير شكل سوسيولوجي للظاهراتية يرجع إلى**"الفريد شوتز"** خاصة عند نشره لكتاب **"ظاهرية العالم الاجتماعي "** في ألمانيا سنة 1932، ولم يترجم هذا الكتاب إلى اللغة الانجليزية إلا سنة 1967، وبعدها أصبح له تأثير ملموس حديث على نظرية علم الاجتماع الأمريكي، وقد وصل شوتز إلى الولايات المتحدة عام 1939 بعد الفرار من النازيين في النمسا، وبعد وصوله بفترة قصيرة حضي بمنصب في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي **New School for Social Research** في نيويورك، والتي استطاع من خلالها أن يؤثر في تطورعلم الاجتماع الظاهراتي في الولايات المتحدة الأمريكية.قدم شوتز نظرية في الوعي والفعل تركز على القيود الثقافية **(القيم والمعايير)** على فكر الفرد وفعله.

وكانت فترة منتصف الستينات حاسمة في تطور علم الاجتماع الظاهراتي، إذ لم يقتصر الأمر على ترجمة أعمال **شوتز** ونشر مقالاته بل أن**"بيتر بيرغر"** و**"توماس لوكمان"** اشتركا في نشر كتاب بعنوان **" التفسير الاجتماعي للواقع"** سنة 1967 ، والذي أصبح من أكثر كتب النظرية رواجا وتأثيرا في ذلك الوقت، ويقدم الكتاب إضافتين مهمتين أولاها أنه يمثل مدخلا إلى أفكار **شوتز** كتب بطريقة ميسورة على عدد كبير من القراء الأمريكيين، وثانيهما أنه يمثل محاولة لدمج أفكار **شوتز** مع أفكار الاتجاه السائد في علم الاجتماع، وتميزت الظاهراتية منذ عام 1967 باهتمام بالغ حتى أصبحت واحدة من النظريات الرائجة في علم الاجتماع المعاصر.

5-الانتقادات:

لاشك أن هذا الاتجاه يركز على دراسة المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع بوصفها أساساً للحياة الاجتماعية وبإهمال الاختلافات والصراعات الواقعية داخل

المجتمع، ويتعارض ذلك تماما مع التحليل العلمي الواقعي للمجتمع الذي يبين بالأدلة القاطعة أن العالم تمزقه الصراعات على كافة المستويات، وأن القدر المتاح من المعاني والخبرات المشتركة بين الأفراد في المجتمع الواحد أو في مجتمعات العالم أقل بكثير من الاختلافات والصراعات، فهناك صراعات عديدة بين الشباب والشيوخ، النساء والرجال، الأغنياء والفقراء، الأميون والمتعلمون، أصحاب السلطة والقوة والخاضعين لهم، ودعاة الحرب، الاشتراكيون والرأسماليون، العالم الثالث والبلدان المتقدمة.أي أن المسَلَّمة الأساسية التي تنص عليها التحليلات الفينومينولوجية عن طبيعة الواقع الاجتماعي **(الخبرات الفكرية المشتركة)** لا تدعمها الأدلة الأمبيريقية، بل هناك أدلة تنفيها وقد تجاهل أصحاب الاتجاه الفينومينولوجي مسألة الصراع الطبقي العنيف في مجتمعاتهم ورفضوا حتى أن يروه أو يشيروا إليه أو يفسروه على الرغم من أنَّه كان يفرض نفسه على الجميع، كما أنهم تجاهلوا الواقع الاجتماعي الاقتصادي للمجتمع ودرسوا الخبرة اليومية وأسلوب التفكير كما لو كانا منفصلين عن الواقع ولا يتأثران به.

ويرى العديد من النقاد بأن الاتجاه الفينومينولوجي اتجاه محافظ من الناحية الأيدولوجية.

نهايةً نقول أن هذا التنوع السوسيولوجي مهما قُـــــدِم له من نقد ومحاولات تصحيح، يظل إثباتاً على أن ما يمكن تسميته بالبحيرة السوسيولوجية ليست بحيرة راكدة وأن أحجار الواقع لا زالت تترك تأثيرها عليها بحيث تتحرك بها المياه باستمرار تاركة هذا التنوع الفكري والذي يأخذ بعلم الاجتماع نحو التطور والتنوع من نظريات كبرى إلى نظريات متوسطة المدى إلى نظريات تهتم بالحياة اليومية كما رأيناها في المنظور الفينومينولوجي، ونراها لاحقاً مع الاتجاه الاثنوميثودولوجي، وما هذا النقد إلا مواصلة للطريق العلمي وسبيلاً لتنقيحه وتعديله.

المحاضرة الثالثة: نظرية الصراع

1- مدخل إلى مفهوم منظور الصراع:

يعد منظور الصراع من المنظورات الأساسية في علم الاجتماع، ولهذا المنظور تاريخ طويل في العلم الاجتماعي كما هو الشأن بالنسبة للمنظور الوظيفي، وكلا المنظورين يهتم بشكل أساسي بدراسة الوحدات الكبرى. وترجع الجذور الفكرية لمنظور الصراع إلى آراء وأعمال **"كارل ماركس"** في منتصف القرن التاسع عشر التي أكدت على الصراع الملازم للمصلحة بين العمال وأصحاب رأسالمال، فقد درس المجتمعات القديمة والمعاصرة بهدف توجيه مجرى التاريخ وذهب إلى أن النسق الاقتصادي يعد المصدر النهائي للسلوك الاجتماعي والنظم الاجتماعية. وبهذا يكون ماركس قد أسهم في علم الاجتماع المعاصر كما أسهم بصفة خاصة في نظريات الصراع الحديثة بطرق متعددة.

كان علماء الاجتماع الأمريكيين يميلون إلى تجاهل منظور الصراع نظرا لكون المنظور الوظيفي كان سائدا وهو الموجه لرؤيتهم للمجتمع، وعندما ظهرت أحداث شغب في الستينات من القرن العشرين اكتسب منظور الصراع شعبية لدى علماء الاجتماع الأمريكيين،

فقاموا بتعريف الصراع بشكل أكثر اتساعا من تعريف ماركس. فبينما اعتقد ماركس أن الصراع بين الطبقات الاقتصادية يعد القوة الأساسية في المجتمع، فأصحاب منظورات الصراع الحديثة يعرفون الصراع الاجتماعي على أنه يعني الصراع بين أية جماعات في المجتمع ينقصها الشعور بالمساواة . ومن ثم فقد قام هؤلاء العلماء بدراسة الصراع بين البيض والسود، وبين الرجال والنساء وبين جماعة دينية وأخرى وغير ذلك من أشكال الصراع المتعددة،دون الاقتصار على مجرد دراسة الصراع الطبقي في المجال الاقتصادي على النحو الذي قام به ماركس.

وينظر نموذج الصراع إلى المجتمع على اعتبار أنه حالة مستمرة من الصراع بين الجماعات والطبقات، ويتجه نحو التوتر والتغير الاجتماعي، وعلى الرغم من أن المجتمع يكون في حالة مستمرة من الصراع إلا أن هناك فترات مؤقتة يسودها الاستقرار، وقد يكون النسق الاجتماعي في حالة عدم التوازن في وقت نتيجة للتغيرات في توزيع القوة، وتبدو عملية الصراع في الحياة الاجتماعية نتيجة لاختلاف الأهداف. ويمكن تحقق النظام الاجتماعي العام من خلال استخدام القهر أو القوة ، بمعنى أن منظور الصراع لا يتصور الأنساق الاجتماعية على أنها منتظمة حول مجموعة من القيم المتسقة، بل يتصورها على أنها أنساق تتضمن مواقف صراعية. ويتسم الموقف الصراعي في أغلب الأحيان بعدم التوازن في القوى , وتختلف نظرة هذا المنظور للمجتمع عن نظرة المنظور الوظيفي، فبينما يؤكد الوظيفيون على ثبات المجتمع نجد أصحاب منظور الصراع يصورون المجتمع على اعتبار أنه يتسم بالصراع وكونه حالة دائمة من التغير.

وفي الوقت الذي يركز فيه الوظيفيون على النظام الاجتماعي العام الذي يعتمد حسب رأيهم على التعاون بين أعضاء المجتمع، نجد أنصار منظور الصراع يميلون إلى التركيز على الصراع الاجتماعي واعتبار التغير الاجتماعي أنه يؤدي إلى تحقيق الفوائد للمجتمع. كما يميلون إلى افتراض أن النظام الاجتماعي العام يتم فرضه بالقوة على الضعفاء عن طريق من يمتلكون القوة في المجتمع. وهم بهذا يميلون إلى انتقاد النظام الاجتماعي القائم في المجتمع.

ويرى أصحاب منظور الصراع أن الجماعات المختلفة داخل المجتمع لها مصالح وقيم متصارعة ويؤدي التنافس بين هذه الجماعات إلى استمرار عملية التغير الاجتماعي، ويثير أصحاب هذا المنظور بعض التساؤلات الهامة مثل: ماهي الجماعات التي تعد أكثر قوة داخل المجتمع؟وما هي الجماعات التي تعد أكثر ضعفا؟وكيف تستفيد الجماعات الأقوى من النظام الاجتماعي القائم؟.

فحسب أنصار المدرسة فإنَّ الصراع لا يؤدي فقط إلى نتائج تفكيكية، بل يعمل على إحداث توازن بين مختلف القوى الاجتماعية. فبدلا من أن يؤدي الصراع إلى تمزيق المجتمع فإنه يمكن أن يكون بمثابة "صمام أمن" اجتماعي من شأنه الإسهام في تحقيق التوازن والاستقرار، معنى ذلك أن الصراع يؤدي وظيفة هامة تتمثل في إيجاد معايير وقيم جديدة، وإعادة الوحدة بين الجماعات المختلفة والتخفيف من حدة التفاوت الاجتماعي، فبدون

الصراع يسود المجتمع الركود ذلك لأن الصراع يرتبط بالإبداع الاجتماعي الذي يؤدي بالتالي إلى التقدم التكنولوجي.

2- أهم الرواد الممثلين لمنظور الصراع:

اهتم كثير من المفكرين بالنظرية الماركسية حيث جذبت الكثير من المهتمين بتفسير تطور المجتمع مما أسهم في بروز نظرية الصراع الحديثة، التي يمثلها كل من **"رالف دارندوف"R.Dahrendorf** و**"لويس كوزر" L.Coser** و **"رايت ميلز" Wright Mills**. وسوف نركز على إسهامات كل من دارندوف ورايت ميلز.

❖ **رالف دورندوف[3]Ralf Dahrendorf(1929- 2009):** ولد دارندوف سنة 1929 ، كان معروفا على نطاق واسع ويحظى بشهرة كبيرة في كل من أوروبا وأمريكا الشمالية ،عمل دارندوف كأكاديمي في ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. وما بين عام 1974 و1984 كان رئيسا لمدرسة لندن للاقتصاد ، إحدى أكثر مؤسسات التعليم العالي في بريطانيا، وفي سنة 1984 عاد إلى ألمانيا لفترة قصيرة كأستاذ لعلم الاجتماع في جامعة كونستانس. توفي سنة 2009..

مفكر ألماني ضليع في النظرية الماركسية، سعى إلى أن يجعل نظرية الصراع جزء لا يتجزأ من التراث الماركسي إلا أنه في النهاية كانت نظريته في الصراع بمثابة مرآة عاكسة للبنائية الوظيفية، ومن أشهر أعماله " **الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي" سنة 1959**،حيث يرى دورندوف بأنه على الرغم من أن جوانب النسق الاجتماعي يمكن أن تتوافق مع بعضها على نحو دقيق إلا أنه يمكن أن يكون هناك صراع وتوتر شديد بينهم.

يرى **دارندوف** أن الصراع شيء جوهري لأي تنظيم اجتماعي، حيث حاول أن يقدم تفسيرا للعلاقة بين القوة والسلطة والصراع، كما حاول أن يقدم نظرية متماسكة حول تشكل جماعة الصراع، ويصف عددا من العوامل الهامة التي تخلق أيضا جماعات الصراع المتحرك وتكثف الصراع وتجعله شديدا أو بشكل مماثل تقود إلى اختزال الصراع الاجتماعي.

ويؤكد **دارندوف** على أن الصراع متأصل في المجتمع، فالجماعات التي تمتلك القوة سوف تناضل من أجل مصلحتها، وكذلك الأمر بالنسبة للجماعات التي تفتقد إلى القوة، ومصالح الجماعتين مختلفة بالضرورة، ويوضح بأنه عاجلا أم آجلا فإن التوازن بين القوة والمعارضة يتغير، والمجتمع يتغير، وهكذا فإن الصراع يمثل**" القوة الخلاقة العظمى للتاريخ الإنساني"**. فحسب **دارندوف** فإن أولئك الذين يمتلكون القوة يحصلون على ما يريدون ممن يفتقرون للقوة، ومن جهة أخرى فإن الناس لا يحبون الخضوع ولهذا فالصراع يكون شيئاً محتوماً. ويرى **دارندوف** كما هو الحال بالنسبة للمنظرين للصراع بأن المعايير الاجتماعية لا تظهر أو تنبثق عن الإجماع الاجتماعي، ويؤكد بأن نظرية الصراع ترى عكس الوظيفية، فالمعايير تؤسس عن طريق القوة، ويتضح جوهرها بالاستناد إلى مصالح صاحب القوة.

❖ **لويس كوزر**[4] **Lewis Coser** (1913-2000): يعتبر كتاب **كوزر "وظائف الصراع الاجتماعي"** الكتاب الأساسي في نظرية الصراع، تناول فيه شرح لأفكار**"جورج زيمل"**، مؤكدا فيه أنه على الرغم من أهمية الصراع إلا أنه يمثل فقط جانبا واحدا من الحياة الاجتماعية، كما أنه لا يزيد في أهميته وجوهره عن الإجماع. فالصراع عنده هو نتيجة لعوامل أخرى غير جماعات المصالح المتعارضة ، حيث يؤكد الدور الذي تلعبه عواطف الناس، حيث يوفق **زيمل** بأن هناك دوافع عدوانية أو غير ودية في الناس. كما يرى **كوزر** بأن الصراع يؤدي إلى التغير وأنّ له دورا كبيرا في الحفاظ على تماسك الجماعة وصيانتها، وهذا بطبيعة الحال يمثل الموضوع الذي يهتم به معظم الوظيفيين.

وفيما يتعلق بعلاقة الصراع والتماسك في المجتمع يشير **كوزر** إلى أن الصراع الخارجي ضروري من أجل تأسيس هوية الجماعة، وبذلك لا يتبع كوزر خط **زيمل**، ولكن يتبع كذلك **ماركس** الذي شعر بأن الصراع فقط يجعل الطبقة مدركة لذاتها ، ويصرح **كوزر** بأن الصراع يضع حدودا بين الجماعات ضمن النسق الاجتماعي من خلال تقوية وعي الجماعة وإدراكها للانفصال وبذلك يؤسس هوية الجماعات ضمن النسق.

❖ **جون ركس John Rex (1925-2011):** تعتبر دراسة ركس التي أصدرها تحت عنوان **"الصراع الاجتماعي" سنة 1981**، من أحدث الصياغات النظرية للنظرية النقدية، حيث طرح في كتابه عرضا منظما لنظرية الصراع، بدأ من تحليل الصراعات البسيطة، ثم صراعات السوق والتبادل، ثم الصراعات الجماعية وأنماط المعارضة داخل النسق الاجتماعي، وأخيرا يناقش مستويات الصراع القومية والعرقية والطبقية . فقد حاول **ركس**أن يقدم نموذجا لتحليل الصراع يصلح كمدخل من مداخل الدراسة في علم الاجتماع.

يحدد **ركس** نطاق استخدام نظرية الصراع في تفسير الواقع الاجتماعي، فيذهب إلى أنه يمكن تلخيص نظرية الصراع على مستويات مختلفة، فمن الممكن استخدامها في دراسة العلاقات الفردية الثنائية والعلاقات الكبرى بين التجمعات والمنظمات مثل الطبقات.وتمثل العلاقات الأولى أبسط حالات الصراع الاجتماعي، وفي هذه الحالات غالبا ما يدور الاهتمام حول العلاقات الشخصية المتبادلة، وترتكز دراسة الصراع في هذه الحالات حول أهداف الطرفين المشاركين في العلاقة والتوقعات المتبادلة بينهما ودرجة فهم كل منهما لهذه التوقعات والدوافع التي تكمن خلف هذا الفهم.

❖ **رايت ميلز**[5] **Wright Mills (1916-1962):** لقد ظهر **ميلز** خلال أربعينات وخمسينات هذا القرن كرمز لمعارضة الراديكالية لكل الممارسات السوسيولوجية التي ظهرت خلال تلك هذه الفترة ، ولا تزال كتاباته تفرض نفسها حتى الآن على مختلف الاتجاهات النظرية في علم الاجتماع الحديث وعلى الأخص النقدية منها، وتتطلب الدراسة النقدية لفكر **ميلز** وعيا عميقا بالظروف الاقتصادية والسياسية والثقافية التي خضع لها، ومن بين هذه الظروف الحرب الباردة التي سيطرت على عالمنا المعاصر خلال فترة الخمسينات، وسيطرة الفكر الاجتماعي المحافظ بسبب التأثير الذي أحدثته الماركسية.

إنَّ أعظم انجاز نظري قدمه **ميلز** ذلك النقد الشامل للمسلمات النظرية والمنهجية الشائعة في علم الاجتماع خلال خمسينات هذا القرن. وعلى الرغم من أن مؤلفه **"الخيال السيوسيولوجي"** الذي ضمنه هذا النقد قد أصبح الآن يحتل مكانة مرموقة داخل الفكر إلا أن تأثيره اتضح في مطلع السبعينات، حينما اكتسبت الحركة النقدية في علم الاجتماع قوة جديدة،فعندما كتب **ميلز** هذا الكتاب فإنه قد عبّر عن اتجاه نقدي في مواجهة تيار فكري عارم يتمثل في الوظيفية المحافظة

لقد سعى ميلز إلى تقديم نقد قوي متميز للاتجاهات السائدة في الفكر السوسيولوجي، ثم طرح مخطط طموح للعلوم الاجتماعية يمكنها من استيعاب العناصر البنائية والنظامية الأساسية التي تؤلف الواقع الاجتماعي المعاصر، ويبدو **"الخيال السوسيولوجي"** في نظر ميلز وكأنه وسيلة تحقيق هذا الهدف، لأنه يمكن عالم الاجتماع من تأمل العصر الفكري الذي يعيشه والوقوف على أهم المشكلات التي يعاني منها الإنسان والإسهام بدور حقيقي في إقامة مجتمع إنساني حر.

وتشير الدراسات المهتمة بفكر **ميلز** أنه لا يمكن فهم **"الخيال السوسيولوجي"** الذي طالب به دون التعرف على تشخيصه لمشكلات علم الاجتماع الأمريكي، الذي يبدو حسب رأيه مزيجا غريبا من عناصر متفرقة ومتباعدة تعبر عن خبرات المجتمعات الأوروبية أكثر مما تعبر عن الواقع المجتمعالأمريكي. واستنادا إلى ذلك شن ميلز هجوما ضاربا على ما طلق عليه**"النظرية الكبرى"** و**"الامبريقية المجردة"**، فأصحاب النظريات الكبرى يقدمون أطرا فكرية تصورية بالغة التجريد حتى لتبدو في صورتها النهائية **"تدريبا ذهنيا"** على استخدام المقولات النظرية، وبذلك تفقد **"النظرية الكبرى"** قوتها التوجيهية وتبتعد بالتالي عن محاولة فهم المشكلات الواقعية .

لقد وجَّه ميلز انتقادات حادة للنزعة **"الامبريقية المجردة"** السائدة في العلوم الاجتماعية، تلك النزعة التي تبنت فلسفة العلوم الطبيعية في دراسة الإنسان، ومعنى ذلك أن علم الاجتماع بتبنيه لهذه النزعة الفكرية الضيقة إنما يحكم على نفسه بافتقاد تصور حقيقي للإنسان والمجتمع. فبدلا من محاولة الوصول إلى مثل هذا التصور يحاول **"الامبريقيون التجريديون"** تحويل علم الاجتماع إلى **"علم طبيعي"** يستخدم نفس المعادلات الرياضية الشائعة في الفيزياء، كل ذلك بهدف الوصول إلى فهم **"شكلي"** للإنسان يتفق مع متطلبات العلوم الطبيعية أكثر مما يتفق مع متطلبات العلوم الاجتماعية التي يجب أن تتوصل إلى فهم **"نوعي"** لعلاقة الإنسان بالمجتمع. وفي الواقع فإن رفض **ميلز** للنزعة الامبريقية المجردة لم يكن أقل شدة من رفضه للنظرية الكبرى فكلاهما حسب رأيه بعيد عن المسار الحقيقي الذي يجب أن يتخذه علم الاجتماع.

3- أهم جوانب الاتفاق والاختلاف بين منظور الصراع والمنظور الوظيفي:

تتمثل أهم جوانب الاتفاق بين منظور الصراع والمنظور الوظيفي في أنّ كلاهما يهتم بتحليل الوحدات الاجتماعية الكبرى ومحاولة رسم صورة كلية للمجتمع، والاهتمام بتفسير الأنماط البنائية للمجتمعات الإنسانية. ويرى دارندوف بأن كلا من المنظورين يدرس

مظهرين لحقيقة واحدة، إذ يهتم المنظور الوظيفي بالاستقرار والتجانس والاتفاق، بينما يهتم المنظور الصراعي بالتغير والصراع والقهر والإكراه:

وعلى الرغم من وجود بعض جوانب الالتقاء بين كل من المنظورين، إلا أنه هناك كثيرا من جوانب الاختلاف بينهما ويمكن تلخيصها فيما يلي: يعتبر منظور الصراع أن **"الصراع"** عامل من عوامل التغير والتقدم، بينما يرى المنظور الوظيفي أن **"الصراع"** مؤشر للتفكك والانهيار وعدم الاستقرار.

- يرى منظور الصراع أن النظام الاجتماعي يتميز بوجود جماعات المصلحة التنافسية، لكل منها أهدافها الخاصة، بينما يرى الوظيفيون أن النسق الاجتماعي يتكون من أجزاء مترابطة.
- تتركز الدراسات التي تنطلق من منظور الصراع على دراسة التغير الاجتماعي والمصالح التي تقسم أعضاء المجتمع، بينما تهتم الدراسات التي تنطلق من المنظور الوظيفي بدراسة النظام الاجتماعي العام، والمحافظة على بقاء واستمرار النسق الاجتماعي من خلال أداء الوظائف الرئيسية.
- يجد أصحاب منظور الصراع صعوبة في التعامل مع ظواهر الاتفاق الاجتماعي والتكامل والاستقرار، بينما يجد الوظيفيون صعوبة في التعامل مع الأحداث التاريخية وعمليات التغير الاجتماعي.

وأخيرا يمكن القولإنَّ نقطة الضعف الأساسية لنظرية الصراع تكمن في طريقة ربطها للبناء الاجتماعي بمصالح الجماعة وتوازن الموارد، إضافة إلى ذلك ففي الوقت الذي لم تحدد فيه الوظيفية آلية التغير نجد أن نظرية الصراع تفعل ذلك من خلال الإشارة إلى التحركات في توزيع الموارد.كما أن إصرار نظرية الصراع على القوة كهدف أساسي للناس وأنها خاصية أساسية للعلاقات الاجتماعية يعتبر محدودا للغاية.

المحاضرة الرابعة: النظرية النقدية

- مدخل إلى مفهوم الاتجاه النقدي في علم الاجتماع:

كان لنشوب الحرب العالمية الأولى سنة 1914 والثورة الروسية سنة 1917 في العقد الثاني من القرن العشرين وما آلت إليه من تغيرات شاملة في النظام العالمي وإعادة تشكيل هذا النظام على مختلف الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دورا كبيرا في تحول أفكار كثير من علماء الاجتماع وتصوراتهم المعبرة عن الواقع الفكري والاديولوجي والظروف التي واكبت تلك الحقبة من تاريخ النظرية الاجتماعية. وهنا ظهرت النظرية النقدية بوصفها إحدى النظريات التي جاءت بناء على فشل الأفكار والاتجاهات السابقة في تفسير الواقع الاجتماعي بما فيه من صراعات وتوترات بنائية وفكرية.

شهد الفكر الاجتماعي المعاصر حركة نقدية واسعة النطاق امتدت من نقد المجتمع إلى نقد علم الاجتماع في حد ذاته،مما جعل هذه الحركة النقدية نشأت داخل إطار علم الاجتماع الأمريكي، وتبلورت أكثر في أعمال **"رايت ميلز"**، و**"الفن جولدنر"**، إلا أن دراسة هذه الحركة وتحليل مقدماتها واتجاهاتها يتعين أن يبدأ من المدرسة التي حصرت أعمالها في

نطاق النقد بحيث أصبح ما يعرف **"بعلم الاجتماع النقدي"** مرتبطا باسمها، وهي مدرسة **"فرانكفورت"** .

يبدو الاتجاه النقدي في علم الاجتماع أكثر ارتباطا بالماركسية ويمكن أن نرجع **"النظرية النقدية "** في علم الاجتماع إلى إسهامات فلاسفة مدرسة فرانكفورت. على الرغم من أن تعبير "النظرية النقدية " يعود إلى فترة الأربعينات من القرن التاسع عشر حينما حاول الهيجليون اليساريون الاستعانة بفلسفة **هيجل** في فهم القضايا الاجتماعية والسياسية. والمتأمل في أعمال مدرسة فرانكفورت يلاحظ أنها تستند في نظرتها النقدية إلى هجوم عنيف على الاتجاهات**"العلمية"** و**"الموضوعية"** التي تنهض عليها الماركسية في صورتها الملتزمة. كما حاولت النظرية النقدية تفسير سبب عدم حدوث الثورة الاشتراكية التي تنبأ بها ماركس في منتصف القرن التاسع عشر كما كان متوقعا.

إن مدرسة فرانكفورت تسعى إلى تحويل الفلسفة إلى **"نظرية اجتماعية "** تستند إلى أسس جدلية تأملية، ولقد حاول **هوركهايمر** توضيح العلاقة بين **"النظرية التقليدية"** و**الماركسية** ، حيث أوضح أن "النظرية التقليدية" لا تؤدي إلى ممارسة نضالية حقيقية، كما أنها لا تسهم في إحداث التغير، فظلت مستندة إلى المعرفة الخالصة وموجهة نحو سيطرة التكنولوجيا على الطبيعة والمجتمع والإنسان.

اتخذ بعض المفكرين والفلاسفة مواقف نقدية مختلفة ابتداء من **كورش Korsch** و**لوكاش Lukacs** و**جرامشيGramsci** وصولا إلى مدرسة فرانكفورت التي يمثلها **هوركهايمرHorkheimer** و**أدورنو Adorno** و**ايرك فرومFromm**و**هربرت ماركيوز Marcuse**و**هابيرماس Habermas** ، وعلى الرغم من أن هؤلاء المفكرين والفلاسفة قد خضعوا لمؤثرات فكرية عديدة، إلا أنهم قد اتخذوا موقفا مناهضا من الوضعية متأثرين بكتابات **دلثي Dilthey** عن مفهوم الروح ودور التاريخ في تشكيل المجتمع، فضلا عن الفلسفة الفينومينولوجية الألمانية وفلسفة التاريخ المثالية التي تطورت في ايطاليا بفضل أعمال **كروس Croce** و**جينتايل Gentile** . وتسعى النظرية النقدية إلى البحث عن العناصر السلبية والنقدية في المجتمع ويمكن أن تشكل أساسا للتغير الاجتماعي.

إنَّ التحليل الذي قام به **جرامشي** أكثر أهمية من وجهة النظر السوسيولوجية الخالصة، ذلك لأنّ هذا التحليل ركز على علاقة الماركسية بعلم الاجتماع، فكانت جهوده النقدية تهدف إلى الدفاع عن الماركسية بوصفها نظرة فلسفية نحو العالم. فهو يرى أن الماركسية هي في جوهرها نظرية فلسفية في الممارسة الثورية تضم كل العناصر الأساسية الضرورية لإقامة تصور كلي شامل للعالم، هي فلسفة شاملة، ونظرية موجهة للعلوم الطبيعية وقانون مفسر لكل ما يحتاجه المجتمع لكي يحقق تنظيمه المنشود ليصبح تعبيرا عن حضارة كلية متكاملة

يعد**كارل كورش** من أبرز مفكري عشرينيات القرن العشرين وضوحا فيما يتعلق بنظرته إلى الماركسية كفلسفة حياة وعلاقتها بعلم الاجتماع كنسق فكري أكاديمي، ولقد عبر كورش عن وجهات نظره في كتابه الشهير **"الماركسية والفلسفة"** حيث أبدى اتفاقا واضحا مع **لوكاش** في كثير من القضايا.

ويذهب **كورش** إلى أن الماركسية كفلسفة مادية هي التعبير النظري عن **البرولتاريا الثورية** تماما كما كانت الفلسفة المثالية الألمانية تعبيرا نظريا عن **البرجوازية الثورية**، ولقد عبّر عن ذلك بشكل أوضح في مقال شهير نشره سنة 1937 تناول فيه العلاقة بين الماركسية والنظرية الاجتماعية

2- مدرسة فراكفورت:

ظهرت مدرسة فرانكفورت إلى الوجود في سنة 1923 من خلال أعمال بعض المثقفين الذين كانوا يعملون في معهد البحوث الاجتماعية بفرانكفورت، غير أن النشاط الأكاديمي الحقيقي لهؤلاء المثقفين قد ظهر بعد تولي **هوركهايمر Horkheimer**(1895-1973)، إدارة هذا المعهد في سنة 1930 حيث استطاع قيادة مجموعة من أبرز المفكرين في ذلك الحين أمثال **هربرت ماركيوز Marcuse**(1898-1980)، الفيلسوف الراديكالي والأب الروحي للحركة الطلابية في أواخر الستينات من القرن العشرين**وتيودور أدورنو Adorno**(1903-1969) و**ايرك فورم Fromm** المحلل النفسي. وقد تشكلت هذه المدرسة خلال فترة الثلاثينات حيث تحددت معالم النظرية الاجتماعية النقدية التي تمثل أحد الدعائم الأساسية للفكر النقدي الحديث.

إن تحليل مفكري فرانكفورت مدين لأعمال ماركس بدرجة كبيرة، وقد أكدوا مثل ماركس على أهمية صراع المصالح المرتكز على علاقات الملكية، ورغم ذلك فإنهم لا يعتبرون من الماركسيين التقليديين فقد كان ولاؤهم الأساسي لهيجل. كما أنهم انجذبوا إلى أعمال ماركس المبكرة وبشكل أكبر إلى العمل الهيجلي مثل كتاباته حول الاغتراب أكثر من تحليله الاقتصادي وأعماله المتأخرة . بالإضافة إلى ذلك فقد جمعوا بين التحليل السيكولوجي والماركسية. وهو الإجراء الذي لا تتعاطف معه الماركسية الكلاسيكية

وتشير الأبحاث المتعلقة بمدرسة فرانكفورت إلى وجود افتراضين يقعان في جوهر منهج التحليل الاجتماعي لمدرسة فرانكفورت وهما:

أولا: إن أفكار الناس تكون نتاجا للمجتمع الذي يعيشون فيه، فيوضح أنصار هذا الاتجاه أنه بسبب تشكل فكرنا اجتماعيا فإنه من المستحيل بالنسبة لنا الوصول إلى معرفة واستنتاجات موضوعية متحررة من تأثير السياق الذي توجد فيه وأنماطه المفاهيمية.

ثانيا: على المفكرين ألا يحاولوا أن يكونوا موضوعيين ويعملوا على فصل الحقيقة عن الحكم القيمي في عملهم، وبدلا من ذلك عليهم أن يتبنوا اتجاها نقديا للمجتمع الذي يختبرونه وهو الاتجاه الذي يجعل الناس مدركين لما ينبغي عليهم عمله، وأن يكون التغير الاجتماعي غايتهم.

وعلى الرغم من أن فلاسفة مدرسة فرانكفورت قد اتخذوا موقفا مناهضا من النزعة الوضعية إلا أن انتقاداتهم لعلم الاجتماع قد جاءت في صورة غير مباشرة ، وربما كان **ماركيوز** من أبرز هؤلاء الفلاسفة رفضا لتصورات كونت السوسيولوجية ففي كتابه الشهير **"العقل والثورة"** نجده يشن هجوما على وضعية كونت التي تتخذ من العلوم الطبيعية نموذجا، حتى أصبحت علمية علم الاجتماع متوقفة على مدى ملائمة موضوعاته للقوانين

الكونية.ذلك أن كونت باتجاهه المعادي للفلسفة قد استبعد معايير العقل والحرية والحق من نطاق علم الاجتماع بسبب تعارضها مع المنهج العلمي الاجتماعي القائم على وصف الوقائع القابلة للملاحظة وإيجاد ارتباطات تجريبية بينها.

وعلى العموم فانه من أهم الأسس التي تقوم عليها مدرسة فرانكفورت ما يلي:

- إن المجتمع في نظرهم ليس مجرد مقولة حيادية كما يذهب إلي ذلك أصحاب النزعة الوضعية وإنما يجب أن يستند تحليل أي مجتمع إلى فهم عميق للتناقضات الكامنة فيه دون محاولة اختزالها في إطار نسق فكري تعسفي.
- اشتهرت هذه المدرسة بانتقاد الاتجاه الوضعي ونقد أسسها النظرية ودعائمهما المنهجية وكان الأساس الجوهري لنقد الوضعية يرتبط بكونها ذات طبيعة محافظة ولا تأخذ في الاعتبار دور التحولات التاريخية في تشكيل المجتمعات.
- تستند النظرية النقدية على نقد الاتجاهات **"العلمية "و"الموضوعية"** التي تنهض عليها الماركسية ، وتسعى إلى تحويل الفلسفة إلى **"نظرية اجتماعية"** تستند إلى أسس جدلية تأملية.

3- إسهامات ممثلي الاتجاه النقدي في النظرية النقدية:

هناك العديد من المفكرين السوسيولوجيين الذين أسهموا بأعمالهم في تطوير النظرية النقدية، نذكر من أبرزهم : **هوركهايمر ، ماركيوز ،ادورنو ، هابرماس، جولدنر وبورديو** يؤكدون على أهمية العنصر الذاتي في النشاط الواقعي ، ويمنحون البناء الثقافي الفوقي قدرا كبيرا من الاستقلالية ، ثم ينطلقون لممارسة"نقد النقد" بهدف إبراز الدور المستقل الذي يمكن أن يلعبه الوعي الإنساني .

- **بيير بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002):** من أكثر علماء الاجتماع الفرنسيين شهرة في مجال الكتابات ضمن الإطار النظري النقدي، فقد وقف بقوة ضد وجهة النظر الماركسية التي تؤكد بأن المجتمع يمكن أن يحلل بالاستناد إلى الطبقات والمصالح والاديولوجيات المحددة طبقيا. فارتكز اهتمامه على الدور المستقل الذي تلعبه العوامل التربوية والثقافية، ويؤكد على أهمية المؤسسات التربوية الرسمية في المجتمعات الحديثة.

وبدلا من تحليل المجتمعات إلى طبقات يستخدم بورديو مفهوم **"الحقل"** والذي يشير إلى ميدان اجتماعي تنافسي، بمعنى آخر يمثل "الحقل" نسقا من المواقع الاجتماعية المبنية داخليا بالاستناد إلى علاقات القوة". مؤكدا على أن لرأس المال ثلاثة أنواع أساسية وهي: الاقتصادي، الاجتماعي والثقافي، ويتضمن رأس المال الاقتصادي السيطرة على الموارد الاقتصادية ويتضمن رأس المال الاجتماعي السيطرة على العلاقات والتي تمثل شبكات من الدعم والنفوذ يتمكن الناس من دخولها بواسطة مواقعهم الاجتماعية، أما النوع الثالث فيتمثل في رأس المال الثقافي والذي يوليه بورديو أغلب اهتماماته كما يرتبط بإسهاماته الأساسية في النظرية السوسيولوجية.

❖ **ماكس هوركهايمر Max Horkheimer (1895-1973)** :ويرى هوركهايمر أن النظرية النقدية لا تأخذ بما هو ظاهر من أنظمة وعلاقات، وإنما تسعى إلى اكتشاف الخلفية الكامنة وأداتها في ذلك هي نقد هذه القشرة الخارجية ، فالفلسفة النقدية لها وظيفة اجتماعية هامة هي نقد النظم والأوضاع الاجتماعية القائمة. وقد وضح بأنه هناك فرق بين النظرية النقدية والنظرية الماركسية ، فالماركسية بالنسبة لهوركهايمر قد وضعت تصورا يحمل بعدا أحاديا للتاريخ وذلك بوصفه نتاج آليات اقتصادية فقط، ومن ثم فسرت الوقائع الاجتماعية بوصفها نتائج اقتصادية فقط وذلك يتناقض مع التوجه النقدي الذي يرى أن الوقائع الاجتماعية ما هي إلا نتاج لقرارات اجتماعية اتخذت بحرية بعيدا عن العنف الثوري الذي اعتمدت عليه الماركسية بوصفه أداة للتغير.

كما فرّق هوركهايمر بين النظرية الوضعية التقليدية والنظرية النقدية ، معتبرا أن الوضعية تبنت مناهج العلوم الطبيعية للوصول إلى قضاياها التفسيرية، ووضعت الأسباب الاجتماعية بوصفها أسباب خارجية عن نطاق العلم والمعرفة، على النقيض تمام من توجه النظرية النقدية التي تركز على دراسة الإنسان بوصفه وحدة التحليل والدراسة، فالمواقف الاجتماعية لا يمكن النظر إليها بصورة سطحية أو اعتبارها مادة علمية يمكن التحقق من صدقها في ضوء قوانين الاحتمال. بل إن هذه المواقف هي القوة التي يمارس بها الإنسان سيطرته على العالم الخارجي.

ويرى هوركهايمر أن الهدف الأساسي للنظرية النقدية للمجتمع هو أن تسهم في تحقيق نوع من إعادة بناء هذا المجتمع، بحيث يصبح أكثر إشباعا وخاليا من ضروب الاستغلال في العلاقات بين الناس. وهي عملية تضع الإنسان على رأس كل نشاط اجتماعي، وتجعله محور تطور المجتمع البشري فهو الكائن الواعي بذاته والقادر على إدارة أموره بنفسه

❖ **ايريك فروم Erich Fromm (1900-1980):** كما تعد كتابات ايريك فورم أحد الدعائم الفكرية الأساسية لمدرسة فرانكفورت ففي سنة 1932 نشر فروم مقالا هاما بعنوان **"منهج ومهمة علم النفس الاجتماعي التحليلي"** أوضح فيه أن التحليل النفسي يستطيع إثراء التصور الماركسي للطبيعة الإنسانية والإسهام في توضيح العلاقة بين الأساس الاقتصادي للمجتمع وبنائه الفوقي الأيديولوجي. وفي دراسة لاحقة حلل فورم تطور الشخصية في المجتمع الحديث، موضحا التأثيرات المختلفة التي أحدثتها النزعة السياسية التسلطية على الإنسان الحديث. مما دفع فروم إلى صياغة مفهوم **"الطابع الاجتماعي"** الذي ما لبث أن احتل مكانة هامة داخل الفكر الاجتماعي والسيكولوجي، ويعد كتابه**"الخوف من الحرية"** من أكثر مؤلفاته تعبيرا عن اتجاهه الاجتماعي النقدي؛ حيث يقول فروم **"إن القوى الاقتصادية تلعب دورا فعالا ولكن يجب ألا نفهمها بوصفها دوافع سيكولوجية بل بوصفها ظروف موضوعية كذلك فان القوى السيكولوجية تمارس تأثيرا كبيرا ولكن لا يجب أن ننظر إليها في إطار محدداتها التاريخية، أما الأفكار فتؤدي وظيفة بالغة الأهمية ولكن يجب أن نضعها في إطار البناء الكلي للجماعة الاجتماعية. بعبارة أخرى فان الظروف الاجتماعية تؤثر على الظواهر الأيديولوجية من خلال الطابع الاجتماعي الذي يتشكل من خلال التكيف الدينامي في إطار كل من العناصر البيولوجية المحددة للطبيعة الإنسانية والعناصر الثقافية المحددة للتطور التاريخي".**

إن معظم إسهامات مفكري مدرسة فرانكفورت اتخذت شكل نقد عام للنزعة الوضعية ،ومحاولة استبدالها ببعض البدائل النظرية كالتحليل الفلسفي اللغوي. ويبدو أن مهمة النقد قد استحوذت على معظم اهتمام علماء مدرسة فرانكفورت حتى فقدوا في النهاية صلتهم بالنظرية الماركسية . وينطبق ذلك خصوصا على **ماركيوز وهابرماس وفيلمر Wellmer** الذين يمثلون الجيل الأخير من مدرسة فرانكفورت قبل تفككها في مرحلة الستينات

❖ **الفن جولدنر Alvin .Gouldner (1920-1980)**: يعتبر جولدنر أحد أهم أبرز ممثلي التيار النقي في علم الاجتماع، ويعتبر موضوعه **"التأمل السوسيولوجي"**أبرز نظرياته الاجتماعية التي ظهرت نتيجة للازمة التي خلقتها الوظيفية في علم الاجتماع الغربي، وهي تعطي للقيم الذاتية دورا هاما في تشكيل الحياة الاجتماعية ، وتؤكد على أهمية الذات كمصدر مهم للمعرفة الصادقة.ويعد كتابه **"الأزمة القادمة في علم الاجتماع الغربي"** الذي نشره سنة 1970 يشكل الدعامة الأساسية في بناء النظرية الاجتماعية النقدية ، لما تحتويه من أفكار وقضايا جديدة، وتحليلات نقدية لمشكلات المجتمع، وتشخيص لأزمة العلم وارتباطاته بالأبنية التاريخية والاجتماعية، إي أن اتجاهه يميل إلى النقد السوسيولوجي أو النقد من الداخل.

وينظر إلى **جولدنر** باعتباره أبرز علماء الاجتماع الراديكاليين المعاصرين الذين أبدوا وعيا كبيرا بأدوارهم الأكاديمية والسياسية والثقافية. فقد حاول إيجاد حل لما أطلق عليه " **أزمة علم الاجتماع الغربي"** من خلال تطوير **"التأمل السوسيولوجي"** الذي يقوم على التحرر من مخاطر الوعي الاجتماعي، وتنمية وعي ذاتي سوسيولوجي لدى علماء الاجتماع، ويقول جولدنر **"إن مثل هذا التأمل السوسيولوجي أصبح مطلبا ملحا بعد التطور الفكري الهائل الذي شهده علم الاجتماع خلال العقود القليلة الماضية، فضلا عن زيادة المشتغلين بهذا العلم واتساع نطاق اهتماماتهم، أما المهمة التاريخية لهذا التأمل السوسيولوجي فهي مساعدة علم الاجتماع على تجاوز وضعه الراهن"**

ويؤكد جولدنر على ضرورة تحرير علم الاجتماع من المسلمات التقليدية المحافظة التي سيطرت عليه منذ نشأته، فلا يستطيع عالم الاجتماع الوصول إلى فهم حقيقي للمجتمع الذي يدرسه دون أن يمتلك فهما حقيقيا لذاته، ومن المستحيل تحقيق فهم عالم الاجتماع لذاته دون معرفة كيفية توجيه نفسه إزاء الناس الذين يتعامل معهم والمعرفة التي يستخدمها. إن نقد النظرية الاجتماعية يتطلب إحداث تغيير جذري على تنظيمها الاجتماعي حتى تؤدي دورها الحقيقي في تغيير العالم .وهذا تأكيد من جولدنر على وجود هوة متزايدة الاتساع بين النظرية والممارسة، حيث أدان على علماء الاجتماع الراديكاليين إهمالهم النظرية الاجتماعية .

وقد هاجم جولدنر الوظيفية البارسونزية بشده معتبرا أن اهتمامها بتدعيم النسق الاجتماعي القائم قد جعلها تؤكد أهمية مصادر الاستقرار متجاهلة بذلك مصادر التوتر والصراع ، والنتيجة المترتبة على ذلك كله أن الوظيفية قد تحولت إلى نظرية اجتماعية محافظة بسبب قبولها ودفاعها عن النظم الأساسية في المجتمع المعاصر . فاهتمامها الفائق بموضوع النظام قد جعل من الصعب عليها مناقشة قضايا بالغة الأهمية كتوزيع الثروة ، شرعية السلطة ، الاستغلال ، الاغتراب...وتبدو الرأسمالية في نظر وظيفية بارسونز وكأنها

قوة هائلة قادرة على تحقيق النظام وإعادة الاستقرار إذا ما تطلب الأمر ذلك. وقد حاول جولدنر توضيح كيف منحت الوظيفية البارسونزية دور القيم مكان الصدارة في تشكيل البناء الاجتماعي ، وكيف أنها اعتبرت الفرد حاسما في تحديد أهدافه الأخلاقية.

ويمكن تلخيص أهم أفكار جولدنر النقدية فيما يلي:

- لا يفصل جولدنر بين الفكر والعملوبين محاولات تغيير الواقع ومحاولات تغيير النظرية .
- النقد الذي يطالب به جولدنر ليس نقدا من أجل النقد وإنما يستهدف في النهاية أن يخلص النظرية من إطارها التقليدي وأن يبرز ما تحتويه من جوانب ليبرالية تكون أساسا لنظرية جديدة .
- إن نقد علم الاجتماع لا ينفصل عن نقد المجتمع، فالنظرية عنده ما هي إلا نتاج المجتمع ، وإذا تغير احدهما لا بد أن يتغير الأخر.
- النقد الذي يدعو إليه جولدنر ليس نقدا كلاسيكيا وإنما هو نقد يقوم على أساس جديد بمعنى أن يتم من خلال ربط علم الاجتماع باتجاهات تاريخية وبمستويات تنظيمية معينة وكأسلوب حياة لمجموعة من أفراد المجتمع.

❖ **يورغان هابرماس Jürgen Habermas**(ولد في 18 جوان 1929): يرى هابرماس أن علم الاجتماع الذي يستند إلى النقد والجدل يجب أن يؤدي وظيفة تحررية ، بمعنى أن يسهم في تحرير الإنسان من حالة الاغتراب التي يعاني منها، والقضاء على كل أساليب السيطرة التكنولوجية ، وإذا كانت الوضعية تحاول طبع الأنساق الاجتماعية بطابع كمي يتلاءم مع طبيعتها ، فان علم الاجتماع الديلكتيكي يجب أن يعمل على تحرير الإنسان من الأنساق الاجتماعية التي تتعارض مع طبيعته التحررية. وقد اتخذ هابرماس موقفا مناهضا من الوضعية بسبب طبيعتها المحافظة، وبسبب قصورها عن فهم العلاقة الخاصة التي تربط علم الاجتماع والتاريخ. ذلك أن علم الاجتماع الوضعي لا يأخذ في اعتباره دور التحولات التاريخية التي تشكل المجتمعات، أما النظرية النقدية فإنها تتجه نحو فهم السياق الموضوعي للأحداث التاريخية بهدف تحديد مسار التطور التاريخي للمجتمعات.

كما يرى هابرماس الضعف الأساسي الذي يميز كتابات ماركس يتمثل في النظر إلى علم المجتمع في ضوء المبادئ التي تحكم العلوم الطبيعية، واستنادا إلى ذلك يجب أن تحرص الماركسية على النظر إلى الإنسان في ضوء إمكانية "التنظير النقدي" لا مجرد الخضوع "الآلي" لقوانين العلوم الطبيعية. وبالتالي فان قصور النظرية الماركسية يكمن في حرصها على تأكيد العمل الاجتماعي، متجاهلة دورالتفاعل والاتصال داخل المجتمعات وبينها.

لقد حاول هابرماس أن يقدم نظرية أكثر شمولية حول الأنساق الاجتماعية والتطور الاجتماعي ،

وطور بذلك أفكار مدرسة فرانكفورت حول كيفية إجراء التحليل والنقد الاجتماعي، فأولى اهتماما خاصا لتطورات القرن الأخير وقوى التغير الظاهرة في المجتمع الحديث. فركز على

الدور الذي تلعبه تصورات الأفراد في صياغة التغير الاجتماعي أو إدراكه، وهذا التأكيد أصبح ظاهرا بصورة متزايدة عبر الوقت وبشكل محدد في نظريته الشمولية حول" الفعل الاتصال.

إن نمط تحليل هابرماس مشابه لنمط التحليل لدى ماركس ، حيث يرى أن التحول ناتج عن أزمة أو تناقضات متأصلة في نظام معين، إن تلك الأزمة والتناقضات تخلق مشكلات تجعل الدفاع عن النظام في نهاية الأمر أمرا معتذرا. ورغم ذلك فان هابرماس كغيره من المنظرين النقديين يؤكد على الدور الذي تلعبه أفكار الناس ووعيهم. فالتغيرات البنائية الأساسية والتناقضات تظهر نفسها من خلال انهيار القيم المشتركة أو **"البنى المعيارية"** ويتفكك النظام القديم لأنه مثل هذه التغيرات تهدد شعور الناس بالهوية. فتركيز هابرماس على الأفكار باعتبارها آلية للتغيير جعل معالجته مختلفة جدا عن معالجة ماركس ، الذي تعامل مع تطور الصناعة الحديثة كآلية وسيطة قذفت الإنسانية من الإقطاعية إلى المجتمع الرأسمالي.

من أبرز أفكار هابرماس ما يلي:

- يعتقد أن مسار المجتمع لا يتحدد بالعوامل الاقتصادية فقط، وإنما بالعوامل السياسية التي أصبحت حاسمة في إدارة شؤون المجتمع الحديث، أي أن السياسة لم تعتمد اعتمادا كبيرا على الاقتصاد.
- اهتم ببعدين أساسين هما: اتساع نطاق الإدارة المركزية وسيطرة النزعة العلمية غلى شؤون الحياة اليومية، وذلك في دراسته للعوامل البنائية الأساسية المؤثرة على المجتمع البرجوازي.
- يفرق هابرماس بين ثلاثة أنماط من المعرفة الإنسانية هي: العلوم الامبريقية- التحليلية والعلوم التاريخية التفسيرية والعلوم النقدية. ومن خلال هذه التفرقة يمكن التمييز بين العلوم الوضعية التي تسعى إلى الوصول إلى أقصى درجات التحكم التكنولوجي، والعلوم التفسيرية التي تؤكد على أهمية الفهم والعلاقات الذاتية وأخيرا العلوم النقدية الموجهة نحو تحرير الإنسان من الحتمية الطبيعية والتاريخية ومن خلال عملية التنوير النظري والعملي.
- إنّ هدف علم الاجتماع النقدي حسب هابرماس يتمثل في إمكانية التأمل وإعادة البناء على نحو يمكن الأفراد من معرفة أنفسهم والإلمام بالمواقف والظروف المحيطة بهم والتخلي عن النظر إلى المجتمع والبناء الاجتماعي ككائنين خارجيين.

4- أهم الانتقادات الموجهة للنظرية النقدية :

قوبلت النظرية النقدية بانتقادات واسعة ذلك أن كثيرا من النقاد اعتبرها بمثابة تأملا فارغا، ولا يمكن اختبار أفكارها وبيان صدقها من عدمه وفقا لمعايير مستقلة، بل اعتبرها البعض عودة للمثالية الألمانية، وهناك العديد من الانتقادات الأخرى نوجزها فيما يلي:

- يرى بعض علماء الاجتماع أن النظرية النقدية تتميز باستخدامها مصطلحات غامضة غير معبرة عن أصالة الفكر ، كما أنها تتميز بالتفاؤل تارة وبالتشاؤم تارة أخرى ما افقدها صدقها في دراسة الواقع الاجتماعي وعدم قدرتها على الوصول إلى قوانين عامة.
- لم تطرح النظرية النقدية بديل واقعي للنظام السياسي في المجتمعات الرأسمالية على الرغم من مهاجمتها لها، الأمر الذي جعلها في حالة تأرجح بين تبني الطبقة العاملة والأقليات المقهورة في المجتمع وبين تبني المستوى الفكري والمستوى الثوري في إحداث التغيرات.

المحاضرة الخامسة: علم الاجتماع ما بعد الحداثة

1/ مدخل الى علم الاجتماع ما بعد الحداثة :

يذهب أنصار علم الاجتماع ما بعد الحداثة إلى الاعتقاد بأن هناك تغيرا أساسيا في طبيعة المجتمع المعاصر، ولذلك فنحن نعيش في عالم ما بعد رأسمالي أو ما بعد الحديث ذو سمة خاصة، ومع ذلك فإن ما يميزه ويجعله مختلفا بشكل مدرك عن معظم النظريات السوسيولوجية وعن الاتجاه البحثي والتفسيري السائد بوجه عام خاصيتين أساسيتين: الأولى: تأكيده على الخطاب، والثانية: معارضته الواضحة للمحك العلمي للعقل والاختبار الامبريقي.ولقد أشارت مدرسة فرانكفورت في الثلاثين من القرن الحالي أن سيرورة العالم المطلقة اليوم ووصفت ما يسمى "بالحداثة" بمرحلة انطلاق ما يسمى بالعقل الأداتي الذي يترجم إلى تقدم تكنولوجي واقتصادي لا محدود ويحفز السيطرة التكنولوجية بما يجعله يتحول إلى مجرد جهاز للسيطرة على العلاقات الاجتماعية.

إنَّ ما ترتكز عليه ما بعد الحداثة هو رفضها للمبدأ العلمي الذي يؤكد بأنه يمكن أن يكون هناك عقلانية متماسكة واحدة، أو أن الواقع له طبيعة موحدة يمكن أن تلاحظ بشكل نهائي أو تفهم. وبدلا من ذلك يشدد مفسرو ما بعد الحداثة على التجزؤ واللاتجانس والطبيعة التعددية للواقع والطبيعة غير المستقرة والمتغيرة للموضوع والوعي الفردي، ونتيجة لذلك يجادلون بأننا نعيش في إطار مجزأ ومتنوع غير متمركز. أبرز من يمثل هذا الاتجاه Raymond ،Michel Foucault ،Jacques Derrida،Charles Lemert .Jean Boudrillard، Jean François Lyotard،Boudon

كما تحدث **مارتن هيدغر M .Heidgger** عن هيمنة العقلانية على كل مظاهر الحياة واعتبار الذات أو كما سماها **"ميتافزيقا الذات"** أساس العالم ومقياسه الوحيد وهيمنة التكنولوجيا باعتبارها استكمال لمشروع الحداثة من حيث سيطرة الإنسان على الطبيعة، كما تنظر للكائنات كما لو كانت أرقام تدار إدارة بيروقراطية وبالتالي فمرحلة ما بعد الحداثة تتسم بما يلي:

- ✓ التأكيد على مفاهيم مثل التقدم، الطبيعة، التجربة المباشرة.
- ✓ الاعتماد على قدرات العلم والعقل الإنساني بهدف معالجة المشكلات الاجتماعية.
- ✓ المعارضة الواضحة للدين(العلمانية).
- ✓ تعظيم الطبيعة وعبادة الإله الطبيعي.

✓ الاعتماد على المنهج التجريبي بدل المنهج الفلسفي.

في الثمانينات تنامى ظهور اتجاه سوسيولوجي في بريطانيا تحت اسم علم الاجتماع ما بعد الحداثة على يد **دافيد هارفي، انطوني غيدنس، كولان كامبل** وغيرهم ممن حاول تأويل أعمال **كارل ماركس** والتكريس الكوني (العالمي) والاستفادة من الثورة المعلوماتية وبشروا بمجتمع خال من الطبقات والثقافات المهيمنة. وهناك اتفاق على أن **فرونسوا ليوتار (1924-1998)** يعد فيلسوف ما بعد الحداثة البارز منذ أن قدم سنة 1979كتابه الذي حدد فيه معالم ما بعد الحداثة ، ويعد كتابه **"حالة ما بعد الحداثة-دراسة في المعرفة-"** الصادر في 1984 مرجعا مهما في فكر ما بعد الحداثة.

يرفض **ليوتار** المنظورات الشاملة عن التاريخ والمجتمع التي ترسمها الأنساق التفسيرية الكبرى كالماركسية التي تحاول دراسة العالم في سياق علاقات تبادلية نموذجية، وتعد ما بعد الحداثة عند ليوتار رفضا صريحا للنزعة الراديكالية السياسية الماركسية ويرفض ليوتار شأنه في ذلك شأن معظم أنصار ما بعد الحداثة وجود دوافع تعظيم الذات لدى الماركسيين وهو يؤكد على أنه لا يمكن أن نقص قصصا ضخمة عن العالم.بل يمكن أن نقص قصصا صغيرة من الأوضاع الذاتية اللامتجانسة للأفراد والجماعات الاجتماعية.

كما يعتبر كل من جاك **دريدا Jacques Derrida**و**ميشيل فوكو Michel Foucalt** من أهم ممثلي هما بعد الحداثة، حيث يعد دريدا فيلسوفا وكاتب مقالات أكثر مما هو عالم اجتماع، لكن الشعبية العامة لمصطلح **"الخطاب"** تم اشتقاقه منه، باستخدام هذه الكلمة يعني دريدا التأكيد على أولوية الكلمات التي نستخدمها، والمفاهيم التي نجسدها والقواعد التي تتطور ضمن الجماعة حول الطرق الملائمة للحديث عن الأشياء .

تدرس النظرية الاجتماعية لما بعد الحداثة العالم الاجتماعي من منظورات متعددة تشمل الطبقة والسلالة والنوع الاجتماعي وغيرها من محددات الانتساب إلى الجماعة وفي ذات الوقت ترفض المزاعم الشمولية لأنساق التفسير الكبرى كالماركسية التي حاولت تحديد المبادئ البنائية المحورية التي تفسر جميع أنواع الظواهر الاجتماعية المتباينة،وما بعد الحداثة اتجاه مضاد للنزعة الاختزالية، كما أنها اتجاه تعددي في أولوياته السببية التي تبدو ليبرالية أكثر منها راديكالية، ولا تثق ما بعد الحداثة في الراديكالية والراديكاليين.

ترتاب ما بعد الحداثة ارتيابا شديدا من العلوم الاجتماعية التي تكثف جهودها في وجهة نظر محددة إلى العالم، وترفض إمكان التصور دون فروض مسبقة، وتذهب إلى أن جميع المعارف تتحدد بسياقها التاريخي الثقافي.

2- أهم الانتقادات الموجهة لعلم الاجتماع ما بعد الحداثة:

لقد تم انتقاد ما بعد الحداثة بقوة فيما يتعلق بمرتكزاتها النظرية، حيث قامت بتقديم كمْ هائل من الانتقادات للنظرية القائمة دون أن تقدم بديلا لها. ومن بين أهم الانتقادات الموجهة لها يتمثل في أنه إذا كان رواد ما بعد الحداثة جادين في زعمهم المتعلق بعدم وجود واقع محدد، وأن المقولات يمكن أن تمتلك فقط سلطة جزئية ومتنقلة فإن هذا الزعم ينتابه شك

كبير، ذلك أن مقولاتهم العامة حول المجتمع هي كذلك جزئية ومجزأة. ومن الانتقادات أيضا هو انهماك ما بعد الحداثي بالكلمة المكتوبة والمحكية، فالذين يكتبون ويخبرون الحكايات والذين تبقى كلماتهم على قيد الحياة هم فقط جزء من المجتمع.

فنظرية ما بعد الحداثة ليست نظرية شمولية، بمعنى لا تحاول تفسير كل شيء يتعلق بالحياة الاجتماعية، وهي في هذا الجانب ليست مثل النظريات الكلية كالماركسية والوظيفية، والتي قدمت نماذج للعالم الاجتماعي باعتباره نسقا كليا يجدد نفسه. ويرى منظرو ما بعد الحداثة أن العالم الاجتماعي يتكون من أفراد وجماعات وثقافات عديدة ومختلفة.

كما يذهب بعض العلماء إلى أن نظرية ما بعد الحداثة تقدم منظورا نقديا إلى الحداثة ذاتها، وفي الوقت نفسه فهي بمثابة مبادئ تختلف تمام الاختلاف عن المبادئ والتي تجسدها النظرية الكلية.